محسن غانم

زمــن الــشام

* قصص *

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

دمشق – 2001

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني:

E-mail : unecriv@net.sy // aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنانة : نسرين المقداد

❑❑

من قال: لا
فلم يمت،
وظلّ روحاً،
عبقرّية الألم..

"أمل دنقل"

■

زمن الشام

-1-

الشهادة!!

عندما استشهدت كان وجهي نحو الشام، جهة دمشق. القتال عنيف شديد، والراية ترتفع خفاقة عالية. العدو كثير، وحامل اللواء يتقدم غير عابئ بالجراح تملأ جسمه. يسقط فلا تهوي الراية، أتقدم فأتناولها بيسراي، تعلو مرفرفة في سماء المعركة، اضرب بيميناي دونهاسيل جنود الأعداء، ورفاقي من حولي وقود موقعة طاحنة، رخصت فيها الأرواح والمهج. أصيبت يدي التي ترفع اللواء نزف دمها غزيراً، يدي الأخرى ترفع الراية، زادتها علواً وارتفاعاً، أصيبت الذراع الباقية، لم أنحن أو أتراجع، بل احتضنت اللواء بما بقي في الذراعين من نبض الحياة، وضممته إلى الصدر، فظل شامخاً. ولما

2

اللقاء!!

في أطراف أرض زراعية أقمت خيمتي، الخضرة تغطي الأشجار والحقول، خلفي تشمخ جبال الأرز والسمان، رائحة البحر تملأ المكان، المدن... القرى. المزارع.. عامرة بالناس، نابضة بحركة الحياة. لم أكد أجلس لأستريح حتى دخل عليّ رجل لاهثاً، منتصب القامة، مغبر الملابس، مشعث الشعر، متصبب العرق، وجهه بلون القمح. وقف الرجل أمامي فبدت عيناه سوداوين واسعتين، تختزنان أسى عميقاً، تراءتا لي صفحتي كتاب قديم عريق.

-مرحباً بك.

"ما يزال منتصباً في مدخل الخيمة متردداً، يحدق إلى وجهي متفحصاً مدققاً"

-ادخل يا أخا العرب.

"لم يبد عليه أنه يسمعني، وظلت عيناه مشدودتين إلى عينيّ"

-تقدم واجلس

"تحركت عضلات الوجه الأسمر، ولمحت الحاجبين الكثيفين ينفرجان عن فسحة بينهما، ترتجف الشفتان المطبقتان، صوت الرجل خشن، واضح النبرات"

-أنا خائف.

-خائف!!؟

-التمس جاراً يحميني.

-هيا تقدم.

"ظل واقفاً وكلامه يتدفق بصوتٍ منفعل"

-لم أجد الأمان عند أحد.

-اطمئن، اطمئن.

-الأرض من تحت قدمي مجبولة بالذعر، الهواء الذي استنشق مبلل برائحة الخطر والشر المرتقب.

–حسبك يا رجل، ما أظنــك إلا واهمــاً، تطــاردك خيالات غريبةٌ.

–الخوف يلاحقني، ورثت القلق عن أبي، رضعته مع لبن أمي.

–ممن الذعر والخوف؟

–من المصائب المفاجئة، من الأعداء يغزوننا في كل حين.

"الوجه أليف، ارتاحت نفسي للصوت المتدفق الحار، وصل بريق العينين السوداوين إلى قلبي".

كررّت الترحيب به:

–ادخل أنت ضيفي.

"ما تزال قدماه جامدتين في مكانهما، وكلامه هــادر متفجر"

–لجأت إلى الأقارب والأصــدقاء، ســرت معهــم، عشت بينهم آملاً إدخالي في منطقة الأمن حيث يحيــون، فكانت الخيبة والخذلان حظي. ردنــي الأهــل أســوأ رد وأقبحه، أما الأيدي التي امتدت نحوي لتصافحني فكانــت دائماً مبتورة عن أجساد أصحابها، متهدلة ميتة.

–هلم يا رجل، اجلس إلى جانبي.

–إنني مستجير بك.

انتفضت غاضباً، وقلت مؤكداً:

-أنت جاري منذ اللحظة، أنت ضيفي.

-تؤمنني وتحميني؟

-أجل ما قدرت على ذلك

3

المكاشفة!!

دبت قدما الرجل، دخل بطيئاً متعثراً، وجلس وقد هدأ وجهه، وسكنت جوارحه أحضرتُ له طعاماً وشراباً، أكل صامتاً وأنا أطيل النظر إلى عينيه اللامعتين، ووجهه المحترق بأشعة الشمس.

- ممّ تشكو؟ لم هذا القلق؟

- أأنت مظلوم؟

- أنا خائف

- ممن؟

- حملتُ على عاتقي تركة ثقيلة من العسف، والآن أخشى الناس جميعاً، فهل تقدر على توفير الأمن والطمأنينة لي؟

- حدثني، حدثني عن نفسك.

- أحسّ أنني مطارد، مطارد إذا سرتُ أو جلستُ،

– من أنت؟ ما اسمك؟ من أبوك؟ من قومك؟

– صورة والدي تنتصب أمام ناظري، كان محنـــي الظهر دائماً من طول العمل في فلاحة الأرض.

– أتعود إلى ما بدأته من حديث؟ أخبرني من أنت؟ من أين أتيت؟

قهقه الرجل، جلجلت أصـــوات ضـــحكه، اتّـــسعت حدقتاه، فازداد بريقهما، وامتلأت وجنتاه دماء قانية، ثـــم نهض واقفاً، ودار دورة بهلوانية، مشيراً بيديـــه، ملوحـــاً بكفيه وكأنه ممثل على خشبة مسرح.

توقف أمامي، نظر إلى وجهي، الألم يعتصر قسماته وهو يتابع حديثه:

– من كل البلاد جئتُ، من المغرب، من المـــشرق، من الشمال، من الجنوب أهلي فـــي كـــل البقـــاع، علـــى شواطئ الأنهار العظيمـــة، والبحـــار البـــيض والـــزرق والحمر، في السهول الخصيبة، والجبال المنيعـــة، وأبـــي عامل.. فلاح.. جندي.. هـــؤلاء أهلـــي، فـــي الماضـــي والحاضر لم يتغير اسمي، لم يتبدل نسبي، ولـــم يرتفـــع السوط عن جسدي.

"راعني منظر الرجل وقد احمرت عينـــاه، وتطـــاير رذاذ لعابه من فمه، وانقلبت صفحة وجهه جمرة تتلظـــى

قلت كمن يحسم الأمر وينهي الحديث:

– إنك لمتعب مرهق، قم الآن فاسترح.

صاح في وجهي:

– لا. لا. لن أفعل، ولن أدعك تغمض عينيك، ألا تريد أن تعرف من أكون حقاً؟

– قلت جاداً

– بلى.

– أما أنا فأعرفك جيداً، أعرف اسمك، أهلك، من أين جئت وإلى أين تتوجه.

– وبعد؟

– أنا عشت معك تاريخك كله، كنت رفيقك. قاتلنا معاً التتار.. الأعاجم.. الصليبيين.. الأوربيين، تقاسمنا الطعام في أهوار العراق وشمال أفريقية، في الصحارى والبوادي والجبال، تبادلنا المواقع والمواقف، استشهدنا سوّية، امتزجت دماؤنا من الأندلس حتى فلسطين، واجهنا الأعداء ذاتهم في طرابلس الغرب وفي طرابلس الشامٍ. في الريف المغربي، كما في ميسلون، كان الخصم واحداً، وما يزال، فهل عرفتني؟

"كأنني في حلم، استيقظ من نوم لا أدري مدته"

صاح صوتي:

–تعال أضمك إلى صدري، فها نحن نلتقي من جديد، في زمن صعب آخر.

4

الحيرة!!

فجأة علا ضجيج أصوات مختلطة توجهنا راكضين إلى باب الخيمة، ثمة رجال كثيرون في الخارج، يتحدثون، يتجادلون كلامهم يصلنا متداخلاً حيناً متقطعاً أحياناً:

– لا نقدر على معاداة هذه الدولة.

– لا طاقة لنا بها .

علا صوت جريء:

– يا قوم سأدفع العدوّ بنفسي وبمن معي .

– قرارك قرارنا.

– عدوك عدوّنا .

– لن نهون أو نتراجع.

عاد الصوت جليّاً واضح النبرة:

– يبتغي العدوّ السيطرة على بلادنا أمامنا طريقان لا ثالث لهما: الاستسلام أو الصمود.

اختلطت أصوات، تعالى الصيّاح، كثر الهرج، سمعنا كلاماً من هنا وهناك:

- الحرب. الحرب .
- لا طاقة لنا بالحرب .
- يمين الله لا نستسلم .
- لا نفرط بوطننا .
- لكنها الحرب .
- وما الحرب إلا ما عرفتم.

اقتربنا أكثر من الأصوات خارج الخيمة، رأينا القوم يتباحثون، يتصايحون، يتعاهدون، يتبايعون، وكثير منهم في جماعات يتهامسون، يشيرون بأيديهم، يحدّقون بأبصارهم إلى الجهات المختلفة.

- صاح رفيقي انظر هناك.

5

الأمل!!

في الأفق البعيد رأيت طليعة جيش، يتقدم زاحفاً نحونا، يرفع الأعلام والأسلحة، يحتمي بسور من الدروع، إنه جيش الأعداء يباغتنا.

ركض رفيقي مهرولاً، يصرخ في وجوه الرجال:

– العدوّ. العدوّ.

– جيشهم على الأبواب .

– طلائعهم حول الديار .

– يا للدهشة!!

– لا ينتبه الرجال، لا يسمعون، كأنهم مخدرون.

لم يستجب أحد منهم، وصاحبي يستخدم أساليب النداء كلّها، وينتقي من عبارات وألفاظ استنهاض الهمم أشـــدها تأثيراً.

انضممت إلى رفيقي، ناديت الناس، لم يجبني رجل، لم تسمعني امرأة، الأطفال فحـــسب تراكـــضوا نحـــوي، أشحت بوجهي عنهم،وقلت لصاحبي آسفاً:

– الرجال نيام.

عقّب محتدّاً:

– والأعداء يقتربون.

– لكنّ الأطفال..

– وما الذي يقدر عليه الأطفال؟

– يحملون حجارة بأيديهم.

– حجارة؟!

– ألا تراهم يهاجمون جحفل الأعداء الزاحف.

– بلى وبعد؟

– في قسماتهم عزيمة وتصميم .

عدنا إلى الخيمة، اقتلعنا أوتادها، انتزعنا أعمـــدتها، طويناها ثم انطلقنا في موكب الأطفال.

■■

عـــروة

1-في كلّ عصر

وصل قطار إلى مدينة القدس وفيه أناس كثيــرون. سيف بن ذي يزن، هانيء بن مسعود الشيباني، خالد بــن الوليد، القعقاع بن عمرو، عبد الرحمن الغافقي، صــلاح الدين الأيوبي، الملك الظاهر، سليمان الحلبي، وســواهم. توقف القطار في المحطة، تجمّع الصحفيون حول القطار، بأيديهم أقلام وقراطيس، اقتربوا من الركاب، حدقوا إلــى عيون الجميع، تلعثمت ألسنتهم، اختفت أصواتهم، مــرّوا أمام العربات، لم يسألوا واحــداً عــن أيّ أمــر، ظلّــت أصابعهم متوترة مشدودة، قابضة على أعنــاق أقلامهــم، متشبثة بأوراقهم، لكنهم ما إن وصلوا إلى حيــث يقــف عروة، حتى انطلقوا جميعاً، يسألونه عن كلّ شيء، عمّــا حدث في الماضي وما يقع في الحاضر، وما سيكون فــي

لم يرتبك عروة، فذلك شأنه في كـلّ عـصر وكـلّ مصر، أجاب عن الأسئلة جميعها، وحاز إعجاب مراسليّ الصحف، ومندوبي المجلات ووكالات الأنباء.

2-محاكمة ثالثة

قُرعت المنضدة قرعاً شديداً بمطرقة خشبيّة أنيقـة، وصاح صوت جهوريّ:

- محكمة!!

دخل القضاة، عباءاتهم سوداء طويلـة وفـضفاضة، وجوههم عابسة. وقف كلّ من في القاعة، حدّقت العيـون إلى العيون، ثم جلس الجميع. رجل واحد لم يعر ما يجري أيّ اهتمام، لم يلتفت أو يقف، بقـي جالـساً فـي قفـص الاتهام، ساهماً، يتراءى في وجدانه وجه مدينته، والمطر غزير يعزف ألحانه. يسمع الميازيب تغني. فـي صـدره يعانق الرعد البرق، فيضع صورة القدس بين كفيّه، ينظر في عينيّ الصورة، يضمّها إلى صدره، يتـراقص لهـب النار. في الظلال، ترتسم أشباح، تتنـادى، تعقـد جلـسة محاكمة!!

من جديد يحاكمونه، كلّ يوم يُحكـم عليـه غيابيـاً

يصوغون قرارات الحكم بلغة فصيحة بليغة، ومفردات دقيقة منتقاة، يزرعون حواشي الصفحات بأرقام المواد القانونية والقواعد الفقهية والاجتهادات القضائية، لكنّ الحكم يظلّ واحداً لا يتغيّر (النفي حتى الموت)!!

3–في المنفى

عروة اليوم حزين، حبيبته ليست له، أخذ صورتها بين كفيّه، نظر إلى عينيها، تموّج شعرها الحريري تحت أصابعه، وبقي الأسى يلفّ أوتار قلبه. حبّها تغلغل في عروقه، خالط دورة الحياة في دمه، اخترع لها قصصاً وحكايات، همس قصصه في أذنيها، حمل وجهها في عينيه، خرج إلى الشوارع، طوّف في الطرقات، جاب الأزقة والساحات، لاحظ أن الناس ينظرون إلى وجهه، وكأنّهم يقرؤون أفكاره. ذرع عروة أكثر من شارع ذهاباً وإياباً، في صدره تصميم لا يتزعزع، والقدس صورة تملأ الأفق أمام ناظريه، تغمر الموجودات، فشعر بأنّ الريح الباردة قد توقفت، ليهبّ نسيم جنوبيّ دافئ، وينطلق الناس يرقصون في الطرقات، دونما تحفّظ أو مداراة. عندئذ ينقضّ عدد من الرجال يرتدون ملابس الشرطة،

4-محاكمة عاشرة

أفاق الهدوءُ عروةَ، سادت السكينة في القاعة عند دخول القضاة، فانقطعت سلسلة ذكرياته وأحلامه. تجولّت عيناه في أرجاء المكان، رأى رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباناً، وقد اشرأبت أعناقهم، يحدّقون إلى وجوه القضاة، منتظرين افتتاح الجلسة.

القضاة الثلاثة، بملابسهم المميّزة، وراء منصّة الحكم، يتحفّز المحامون في مقاعدهم، يعقدون أذرعهم فوق صدورهم، يعدّل الحاضرون ويبدّلون جلساتهم، ويقرأ أحد القضاة أوراقاً:

-عروة غير متهم بتحريض الناس في هذه المرة، لن نحاسبه بسبب انتقاده للنظام السائد، لن نسأله من أجل السطو على أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء. فتقارير الرجال الثقات لا تشير إلى إزكاء روح الجريمة في النفوس، ولكنها تؤكّد أنه يرى حبيبته في صورة مدينة القدس، ويتوهّم القدس وجهاً لامرأته التي يعشقها، وفي أحيان كثيرة يأخذ عروة مصوّر المدينة بين كفّيه، وينظر إليه طويلاً، ثم يخرج إلى الناس رافعاً المصوّر عالياً وهو

علا صوت المطرقة الأنيقة تقرع خشب المنــضدة. رفع عروة رأسه، وقبل أن يرجع إلى داخل ذاته، ســمع رئيس المحكمة يعلن:

– قضت المحكمة أن يُنفى المتّهم إلى خارج الــبلاد، فلا يشكّل وجوده هناك أيّ خطر على حياتنا المستقرة.

■■

جـــراد

ظهرت أسراب الجراد في عدد من أقطار أفريقيـــة، شوهدت في سماء الصومال، وبعض مناطق الحبشة، وقد .....

أغلقت المذياع، خرجت إلى الشرفة، بهرنـــي نـــور الشمس.

وفي الجو الحار شممت رائحة الجراد يتّجـــه نحـــو السودان، يعبر البحر الأحمر، يـــصل البحـــر الأبـــيض، يعمّ... يتكاثر... يتوالد.. يمحو اللون الأخضر من العالم. جفاني نوم القيلولة، لم أقدر على الاسترخاء، فرّت منـــي الأحلام، حتى الأنباء التـــي تنـــشرها وكـــالات الأخبـــار خذلتني، وزرعت في عقلي صورة أسراب الجراد تغـــزو مناطق واسعة من مساحة الأرض.

في ذهني حكايات عن (سفر برلك). في ذلك الزمان،

نهضت إلى رفٍّ صُفّت فوقه كتب، تناولت موسوعة علمية، بحثت فيها عن –الجراد– قرأت:

"الجرادة حشرة.. لها.. أجنحة... أرجل... تطير... تتكاثر... تلتهم..." ورحت أدقق في صورة ملونة لجرادة مكتملة.

فتحت معجماً عربياً، نظرت في معنى كلمة –جراد– جرادة– للذكر والأنثى.. والبدو يأكلون الجراد في سنيّ القحط والجفاف!!.

خرجت إلى الشرفة مرة ثانية، أحسست حركةً بين أغصان شجرة الرصيف أمام النافذة. ياللغرابة!! ثمة جرادتان تحطّان فوق الأوراق اليانعة الغضّة. أطبقت أجفاني مراراً ونظرت، إنها الحقيقة، لست متخيلاً ولا واهماً.

استدرت أريد الرجوع إلى الداخل، فإذا جرادة كبيرة صفراء، تقف على حافة النافذة. لها عينان كبيرتان بارزتان، فوقها قرناً استشعار ممتدان، وساقان مفرطتا الطول، محنيتان مشدودتان بعنف، والركبتان عاليتان ترتفعان فوق مستوى الظهر.

دخلت الغرفة مرتجفاً، استلقيت فوق مقعد عـــريض أحدّق إلى السقف، أتساءل عما اعتراني، وما حلّ بي.

في السقف ارتسمت صورة جـــرادة... نهـــضتُ... رأيت الغرفة تعج بأفواج الجراد.. تتجمع في الشرفة حول نباتات الزينة... فوق أوراقها.. وقد انهمكت في التهام كل اخضرار فيها..

صرخت من أعماقي مستنجداً. حضرت زوجتـــي... أولادي... ألقوا عليّ أسئلتهم.. ألحّوا فـــي استفـــساراتهم، فأشرت إلى الجراد المنتشر في الغرفـــة، فـــوق الأثـــاث والجدران. على الأرض... أريتهم شجرة الرصيف التـــي كانت خضراء وارفة فأضحت جرداء ميتة.

هزوا رؤوسهم... عادوا إلى الغرفة... جلسوا فـــوق الكراسي... أداروا مفتاح التلفاز... شخصت عيونهم إلى الشاشة الصغيرة... نظرت حيـــث ينظـــرون... كانـــت أسراب الجراد تطغي على كل شـــيء، تغطـــي الـــصور والأشكال... فصحت:

انتبهوا... هذا الجراد يملأ التلفاز... يأكل الصور!!. لم يجبني أحد... لم أسمع صوتاً... لم أحـــس بهمـــسة... التفتّ إلى حيث أفراد أسرتي. وجدتهم وقد غطتهم أعـــداد كبيرة من الجراد!!

حطت جرادة فـــوق رأســـي... اثنتـــان... تـــسلّقني

ظلّ الجراد يزحف نحوي...
ويكسو جسدي!!

■■

فـــي بوابـــة دمشـــق

صبيحة عيد ميلاد السيد المسيح، في منطقـــة بوابـــة دمشق بالقدس، حبست سيدة ابنها الفتى، أقفلت الباب عليه بالمفتاح، وهي تصيح:

كفى... كفى...

–دفعتُ ضريبة الدم مرتين، استـــشهد والـــدك فـــي الأولى، وفقدتُ أخاك في الثانية أصبحتُ أرملة في الثانية والعشرين من عمري، نذرتُ نفسي لتربية طفلين، ضـــاع منّي أولهما، فهل أفقد الآخر الباقي؟

–أرجوك أمّاه، إنهم ينتظرونني، لابدّ أن أنضمّ إليهم، هذه مظاهرة فقط، احتجاج ضـــد أســـاليب المحتلّـــين، لا أعمال عنف. الأرض تضجُّ مسيراتٍ صـــاخبةً، يخـــرج الناس كلّهم، في الضفة، في القطاع، في الهضبة.

–انظر من النافذة، إنهم منتشرون في الشوارع، على

–نحن لا نخشاهم.

–لن تخرج إلا على جثتي، قلت لك كفاني ما قدّمت، لم يبق لي سواك، اهدأ، أنا ذاهبة الآن، سأحاول الحصول على بعض المواد الغذائية، سأعود بسرعة.

–لا تذهبي، الإضراب شامل، والسوق مقفلة.

–سأجرّب... ها أنا خارجة.

أغلقت الأم باب غرفة ولدها، أدارت المفتاح في القفل دورة بعد دورة، دفعت الباب بيدها لتتأكد أنه مغلق متين.

في بهو البيت توقفتْ، نظرت إلى صورة فتى في السابعة عشرة من عمره، صورة ولدها الأكبر معلّقة على الجدار، كانت آخر ذكرى له قبل أن يلتحق بالفدائيين.

دخلت المطبخ، غالبت الدموع في عينيها، مسحت عبراتها بكفّها، جالت نظراتها في أنحاء المكان، تناولت حقيبة للخضار، طوتها، وضعتها تحت إبطها، لفّت رأسها بمنديل أبيض، شدّت سترتها فوق صدرها، سارت إلى باب الدار، التفتت نحو باب غرفة ابنها، ثم خرجت بهدوء. وأغلقت خلفها باب الدار بالمفتاح.

مرّت في زقاق ضيّق، أبواب البيوت مغلقة كلّها، لا أثر لإنسان، لا صوت لحركة، انتهى بها الزقاق إلى آخر، ثم إلى شارع عريض. هنـــاك رأت عربـــات عـــسكرية تتمركز في الزوايـــا، تختبـــئ وراء المنحنيـــات، فوقهـــا تنتصب فوهات أسلحة مسددة إلى الجهات الأربع.

إلى جانب العربات جنود مدججون بالسلاح، رأتهـــم فوق الأسطحة، في كـــل مكـــان عيـــون تراقـــب، وآذان تنصت، وأجهزة ترصد.

وصلت إلى السوق رأت المخازن مقفلة. سارت إلى الأمام، كان هناك بعض المارّة، ودّت لو تتوقف فتـــسأل واحداً عن دكان مفتوحة، أو بائع يمكن أن تحـــصل مـــن عنده على بعض السلع، لكنها خافت، خشيت أن تخترقهـــا عيون الجنود، أو أن يصوّبوا إليهـــا فوّهـــات البنـــادق. فمضت في سيرها لا تلوي على شيء.

فجأة علت الأصوات، هدرت الهتافات، اندفعت أمواج بشرية متدفقة، تركض، ترفع أعلام فلسطين، تهتف:

فلسطين عربية... القدس عربية... تحيا فلسطين.

ملأت الهتافات الآذان، عَلَتْ فوق أصوات الطلقـــات النارية، واجهت الحجارةُ عربات مدرّعةً وبنادق آلية.

المتظاهرون فتيان، رجال، نساء، يـــسيطرون علـــى الشارع، يمتازون بسرعة الحركة والحماســـة. انـــزوت

ركضت إلى داخل المنزل، قطعت المسافة عبر المدخل والبهو كالبرق مسرعة، غرفة ابنها مفتوحة أيضاً، اندفعت، نادت، ولكن دون مجيب. على الأرض رأت مفكّاً كبيراً، آه. إنه الأداة التي استطاع بها ولدها أن يفتح قفل الباب ويخرج. انحنت، التقطت المفكّ، وقفت حائرة لا تعرف ماذا تفعل. في تلك اللحظة دخل ابنها بهو الدار راكضاً، وأغلق خلفه الباب، أقفله بالدرباس، كان منفوش الشعر، محمّر الوجه مشوّش الملابس، توجه نحو غرفته، لكن طرقات عنيفة على باب البيت جعلته يقف جامداً في مكانه.

نظر إلى عيني والدته، حدّقت إلى وجهه، عندئذٍ كان الباب يتداعى أمام رفسات أقدام، ويدخل جندي إسرائيلي يحمل بيده هراوة غليظة، وفي كتفه عُلّقت بندقية آلية.

كشّر الجنديّ عن أنياب حاقدة وهو يشير إلى الفتى:

-أنت.....

حاول الفتى أن يتكلّم، لكن الجندي رفع هراوته في

■■

احتفال

أدار مفتاح المذياع، أصغى إلى نشرة الأخبار، نقل إبرة "الراديو" من إذاعة إلى إذاعة، حدّث نفسه بصوت مرتفع:

–مناسبة رائعة... مناسبة رائعة...

زوجته، أبناؤه، يراقبونه، يرصدون حركاته. في وجوههم ارتسمت علامات تساؤل واستغراب:

– أتحدث نفسك؟

– قومنا يحتفلون بذكرى جليلة...

– سنسمع كلاماً كثيراً، خطباً عصماء، أحاديث حماسية.

– غريب!! أنت تقول هذا؟

– عرب أفريقية... وعرب آسيا، يتحدثون عن

– حطين؟

– نعم حطين... يوم انتصر العرب على الأوروبيين الغزاة عند قرية حطين، غرب طبريا، في معركة فاصلة، نتج عنها جلاء المحتلين عن بلادنا.

– ولماذا الاحتفال؟

– تلك الموقعة التي ابتدأت أوائل تموز عام 1187م، وبلغت ذروتها في اليوم الرابع من ذلك الشهر.

– ذكرى عظيمة.

– أجل، وسأحتفل بهذه المناسبة!!.

نظرت الزوجة إلى وجوه الأبناء، اجتمعت نظرات الأولاد فوق وجه أبيهم، شفتاه مطبقتان مشدودتان، عيناه تشعان بريقاً نافذاً، قامته منتصبة بعنفوان... كلها علامات لا تقبل الشك في أنه قد قرر أمراً!!

همست الأم:

– أنت معلم القرية، مدير مدرستها، لا تلق بالناس إلى التهلكة...

– قريتنا محتلة منذ عشرات السنين... وقد دفع كل بيت فيها ضريبة الجهاد، وما خرجنا مرة من صدام مع المحتلين إلا بعدد جديد من الشهداء.

ابتسم الزوج، ربت بأنامله على كتف زوجته وقال:

– سأحتفل وحدي، لا تخشي شيئاً، هيئي طعام العشاء، سأشرب كأساً، وليكن ما يكون.

– آه... هكذا!!

انصرفت الأم إلى المطبخ، استغرق الأولاد في مشاهدة التلفاز، والأب ينقل عينيه بين وجوه أبنائه ويقول لنفسه:

–أجل أنا معلم القرية التي يحتلها العدو، كلامه، قصائده، أفعاله، بلا لون، بلا طعم، بلا رائحة، يبشر بالموت!! حياته عاقر لا تنجب التفاؤل.

سمع صوت تحطم شيء في داخله، وأحس بنزف في جوفه. عاد إلى حواره مع ذاته:

–الفراغ الروحي الذي أعيشه أقسى وأمرّ، تمضي الأيام... أستهلك الساعات في البيت، في المدرسة... أفكر... أفكر... أتحدث... أشرح... لكني لا أفعل شيئاً.

الصورة واضحة أمام عينيه، تتجمع توافه الحياة اليومية المبعثرة على صفحات تاريخ حياته، يستقطبها ذهنه في مثل جلسته هذه أمام طعام العشاء ولفافة التبغ. تتجمع في ذهنه، بلا ضجة، سحابة غير ماطرة، تنتشر في سماء عقله لتلف الموجودات كلها.

نام الأولاد، أوت الزوجة إلى فراشها، والمعلم يجلس وحيداً يحتسي شرابه ببطء، يتناول لقيمات لا يحس لهـا مذاقاً، يمتص طرف لفافة تبغ، ينفث دخانها في الهواء...

انتصف الليل... الجو حار... ويوم حطين كان الحر شديداً. تحية لـصلاح الـدين وهـو يـتفحص سـفوح الهضاب... يرسم الخطط للإيقاع بالعدو... يدفعـه إلـى الأرض الجافة، بعيداً عن الماء والكلأ. ومع عتمة ما قبل الفجر، يأمر جنوده بالتحرك للإحاطة بالخصم.

فما تشرق شمس ذلك اليوم حتى يبدأ الهجوم ويسجل الجيش العربي نصراً حاسماً.

توقفت ذاكرة المعلم أمام مشهد آخر، مشهد الطائرات العدوة تصب القنابل والصواريخ فوق الـرؤوس. شـقيقه يتهاوى مضرجاً بدمائه... يلتفـت معلـم القريـة يميناً ويساراً، فيرى جثثاً متناثرة للأهل والجيران في جنبـات القرية كلها... آه!! ما تزال الجراح تنز دماً حاراً طيلـة السنين التي مضت.

توجه حافي القدمين إلى حيث تنـام زوجتـه، ألقـى عليها نظرة محبة، مسحت عيناه ملامح وجهها المستغرق في النوم، قرأ في ثنايا جبينهـا تاريخـاً حـافلاً بالعمـل والتعب.

توقف أمام أسرة الأولاد، غمرهم بنور منبعث مـن

ابتسم عندما تخيل ما ستقوله الإذاعات العربية في نشرات أخبارها الصباحية.... ملأت أصوات المذيعين مسمعيه: ((قامت إحدى وحدات المقاومة في الأرض المحتلة بالهجوم على ثكنة للعدو، فأوقعت فيها خسائر في الأرواح والعتاد، ثم عادت إلى قاعدتها سالمة. ولم يعترف العدو- كعادته- بحجم خسائره في هذه العملية الجريئة)).

■■

سـالم

نظر جندي إسرائيلي إلى جندي آخر وقال له:

– دافيد... يبدو أننا سنظفر بصيد!!

– ما قصدك يا شاؤول.

– انظر هناك.

التفت دافيد إلى حيث يشير شاؤول، رأى فتياناً من سكان القرية يصنعون زجاجات حارقة، يجمعون حجارة وإطارات مطاطية بالية، وبراميل فارغة، يكدسونها في منحنى عند زاوية شارع القرية.

الحيوية والنشاط والحماسة تطبع حركات الشبان، ففي قلوبهم تنبض ثورة، وفي دمائهم تغلي براكين طلب الثأر لشهداء قرية "سالم" وقرى نابلس ورام الله والخليل.

ابتسم الجندي الصهيوني، هز رأسه موافقاً، وقد

– سيدي... أمامنا شارع قرية "سالم" في جانب خلفيّ منه صبية يجهّزون مواد من أجل استخدامها في أعمـــال تخريبية.

– نعم... أنا أسمع... نعم.

– حجـــارة... قنابـــل مولوتـــوف... إطـــارات... براميل..

– حاصروا المنطقة.

– نحتاج عدداً إضافياً من الجنود... آليات... و...

– سنكسر عظامهم.

– الفتيان في زاوية الشارع منهمكون فـــي العمـــل، منكبون على ما بين أيديهم. قال أحدهم:

– خالد... هل سمعت أخبار غزة؟

– استشهدت فتاة بنيران الجنود الأعداء.

– وفي نابلس قتلوا امرأة.

– الغضب يقهر آلة الغزاة.

– حجارتنا شوكة في حلق المحتلّين المتعجرفين.

– لماذا لا تقول شيئاً يا عدنان؟

– اليوم نفعل... كفانا كلاماً.

– ارتفعت شمس فلسطين من وراء التلال، تطاولت الأشجار وامتدت. الأشعّة الذهبية تمسح المنطقة، فتضفي عليها لوناً براقاً، والعصافير في أعالي الأشجار تبني أعشاشها، وقرية "سالم" تنتظر نهاراً حافلاً.

الصمت المسيطر غير طبيعي في مثل هذه الساعة من النهار، إنه هدوء ما قبل العاصفة.

مجموعات من جنود الاحتلال تنتشر عند أطراف القرية، يقترب الجنود فرادى موزعين باتجاه شارع القرية، شاؤول ودافيد في المقدمة.

فجأة تنهمر الحجارة فوق رؤوس الجنود، يندفع أهل القرية في الشوارع والأزقّة المتفرّعة عنه، رافعين علم فلسطين، هاتفين بشعارات الحرية، ويطلق الغزاة نيران بنادقهم، فلا تتوقف الحجارة، وتبقى سيارات الجنود أهدافاً للزجاجات الحارقة.

استمر جنود الاحتلال يتقدمون وراء ستار من الغازات المسيلة للدموع، والطلقات النارية المتفجرة، والفتيان صامدون، بينما شاؤول ومن معه يلتفّون عبر زقاق خلفي، ليصلوا الشارع من وراء الثوار، فيفاجئونهم من حيث لا يحتسبون.

في اللحظة التي أحسّ فيها فتية قرية "سالم" باقتراب

في مقدمة الغزاة دافيد وشاؤول، معهم عشرات من حملة الهراوات والبنادق والقنابل، رفعوا هراواتهم، انهالوا على الفتيان ضرباً موجعاً بلا رحمة ودونما تمييز، كانوا يضربون بوحشية وحقد، يستهدفون عظام الرؤوس والأطراف خاصة،. فتعالى الصراخ واختلط بأصوات الطلقات المتتابعة.

أمر الجنود أبناء القرية المحصورين أن ينبطحوا أرضاً، قيدوهم، جردوهم من ملابسهم، جرّوهم إلى أحد أطراف الشارع، ألقوا بهم في حفرة عميقة واسعة.

هناك وقف شاؤول ومن معه يحرسون أسراهم، يتناوبون في ضربهم وإهانتهم. نزل شاؤول إلى الحفرة، وضع حذاءه فوق ظهور الفتية، داس أعناقهم، بصق في عيونهم، لكنه لم يشتفِ.

صاح شاؤول:

-هيا قفوا على أقدامكم.

ثم أشار إلى واحدة من الجرافات التابعة لجيش

هدرت الجرافة، اقتربت من الحفرة، امتـــدت كفهـــا الحديدية إلى التراب، دفعته نحو الفتيان الواقفين، ومضت تدفع التراب عليهم من الجهات الأربع حتى دفنـــتهم إلـــى أعناقهم وهم شبه أموات، لا تظهر منهم غيـــر الـــرؤوس فوق التربة المقلوبة.

وكان صوت قهقهات شاؤول ودافيد عالياً يملأ جـــو المكان.

■■

بيتـــا

"بيتا" قرية عربية فلسطينية قرب نابلس، كانت تشارك الطبيعة ثورتها، وتنخرط في مهرجان نيسان بعنفوان الفلسطيني العربي. تتفتق فروع أشجارها عن ألف لون ولون من الأزاهير، وتشتعل في حدائقها حمرة الورود، مختلطة بخضرة الأوراق النديّة.

حقول قمح "بيتا" تمشط شعرها استعداداً لموسم عطاء السنابل، ونسيمها العليل يداعب المخلوقات، فيبـــث فـــي عروقها دفقة الحياة. مياهها الرقراقة تمدّ الشرايين بنـــسغ نابض متوثب، أهلها مكبّون علـــى أرضـــهم يرعونهـــا، يسقونها دموع العيون وعرق الجباه، يـــصلون الحاضـــر بالماضي، فتبدو قرية "بيتا" وقرى منطقة نـــابلس، تفـــتح الأبواب لشهر نيسان، تواصل مسيرة الأجداد من كنعـــان وغسان وعدنان، وتمارس طقـــوس الربيـــع الاحتفاليـــة الخاصة، عادات الآباء في هذه الأرض منذ فجر التاريخ،

خرج أحمد وحسين يتنزهان في دروب قريتهما، يصعد الشابان الروابي المطلّة على الوديان والسهول، يمتعان ناظريهما بمشهد الأرض ترتدي حلّتها القشيبة، يراقبان الطيور تبني أعشاشها، والبساتين تتباهى بألوانها. يتهامس الشابان بقصص صبايا "بيتا". وفيما هما مستغرقان في حديثهما، رأياً حافلة تقترب منهما فوق الطريق المعبدة. على الحافلة يرفرف علم غزاة فلسطين، وفوق واجهتها وجانبيها كتابة باللغة العبرية.

نظر الفتيان العربيان إلى الحافلة تتوقف غير بعيد عن مكانهما، ينزل منها عشرات الفتية والفتيات في مثل سنهما، ينطلق ركاب الحافلة في كل اتجاه، يتأملون جمال الطبيعة في هذه البقعة من الأرض، يتوسّد بعضهم الأعشاب، ويسير آخرون مثنى وثلاث.

قال أحمد:

- إنهم في نزهة
- طلاب فيما يبدو.
- لكن.. انظر!!
- معهم حارسان مسلّحان، يحملان بندقيتين.

– أعتقد أنه ينبغي أن ننسحب من هذا المكان.

– هيا.

نهض الفتيان العربيان، أرادا أن يسلكا الطريق بعيداً عن موقع الحافلة، لكن المتنزهين فوجئوا بهما، وانتفضوا عند سماع صوت حركتهما، فارتبكوا وأشاروا إليهما، وسرعان ما تناول الحارسان بندقيتيهما، وراحا يطلقان النار بانفعال وعصبية في الاتجاهات كلها.

سادت الفوضى بين ركاب الحافلة، تراكضوا، انتشروا، والحارسان مستمران في إطلاق الرصاص بلا هوادة، بلا وعي، فسقط أحمد وحسين قتيلين، وأصابت رصاصة بندقية أحد الحارسين فتاة من ركاب الحافلة في رأسها فأردتها.

أسقط في يد الحارسين، وصاح أحدهما وهو ينظر إلى زميله نظرة ذات مغزى:

– قتل الإرهابيان "تيريز"..... قتل الإرهابيان "تيريز"..

وردد سائر الركاب:

– قتلوا "تيريز"..... قتلوا "تيريز".

تناقلت الأنباء الخبر سريعاً، وقالت إذاعة الغزاة:

– هاجم إرهابيان عربيان من قرب قرية "بيتا" قرب

بعد ساعات كان جيش الاحتلال يطوّق قرية بيتا يمنع حركة سكانها، يدخل بيوتها، يعتقل رجالها، يضرب نساءها، يطلق الرصاص على كلّ من يتلكأ في تنفيذ الأوامر. وخرجت جموع الغزاة من مستوطناتها تهتف:

-الموت لبيتا.. الموت لبيتا.

لا نريد بيتا على وجه الأرض.

-نطالب بمحو بيتا من على الخريطة.

ومضى جنود إسرائيل ينفذون الأوامر، ينسفون بالديناميت منازل قرية "بيتا" منزلاً في إثر منزل، فتصبح ركاماً.

وتوجه رئيس وزراء الغزاة بصلواته إلى إلهه مستنزلاً غضب السماء على قتلة "تيريز" وهو يعني سكان قرية "بيتا" والعرب جميعاً.

أما عرب "بيتا" فكانوا ينظرون إلى كلّ ما يجري، والمرارة تمزق أكبادهم، والعدو يقود أبناءهم إلى معسكرات الاعتقال والنفي، ومع ذلك فإن الباقين في قرية بيتا نصبوا الخيام فوق أنقاض بيوتهم المهدمة، وسكنوا فيها، ملتصقين بأرضها، ملتحمين بترابها.

■■

فتيان الجنوب

-1-

تحت شجرة باسقة، في جانب أحد البساتين، مجموعة من الفتيان، تتقارب رؤوسهم، يكسو العزم وجوههم، وفي صدورهم احتبست عواطف متصارعة. بعضهم منبطح على الأرض يحدّق إلى التراب أمامه، وبعضهم الآخر، يجلس متربعاً، وقد سيطر على الجميع صمت عميق.

حول البساتين تتعانق الأشجار، تشكّل أسواراً عالية تحجب الفتيان عن الأبصار. وراء تلك الأسوار تتناثر بيوت القرية، وتمتد على جانبي طريق عام عريض، يشقّ القرية من الشمال إلى الجنوب.

كانت السيارات تمرّ ليلاً ونهاراً غادية رائحة، بين مدينتي صيدا وصور، لكن ظروف الاحتلال جعلت ذلك الطريق مقفراً خاوياً.

وصل زياد، وهو فتى ناحل طويل القامة، حيّا رفاقه، قعد، نظر إلى الوجوه، لاحظ أن في أعماق النفوس شوقاً لأداء مهام جديدة. وأدرك أن الفتيان ينتظرون منه إبلاغهم الأوامر، لتعربد عواطفهم مندفعة كالريح العاصفة.

التقت عيون الفتيان، ارتسمت على ملامحهم ظلال ما حولهم من أهل وأرض وأشجار ومياه، فكل شيء يوحي بالخطر الداهم، والغمة النازلة بالبلاد.

2

قال زياد:

–دمرنا كثيراً من دبابات وناقلات العدو، نفذنا عمليات فردية وجماعية، تجلّت من خلالها بطولات فذّة نادرة. وتجسدت فيها قدرات عالية، ودقة في تنفيذ المهام.

أخرج الفتى من جيب سترته صفحة مطوية من جريدة، بسطها بين أصابعه وتابع حديثه:

– صحافة العدو تعترف بنجاحاتنا. اسمعوا ما كتبوه عنا: "ذهل الجنود الإسرائيليون حين اكتشفوا أن المسلحين الذين كانوا يدمرون مدرعاتهم بقذائف الآر. بي. جي ليسوا سوى أطفال تتراوح أعمارهم بين 12 و15 سنة).

قلب الصحيفة على وجهها الآخر واستمر يقرأ:

"ضابط إسرائيلي يعترف: دخلت لبنان، وشاركت في القتال، في النبطية والدامور وجزّين ثم في بيروت، ونجحت في الإفلات من الموت بأعجوبة، عندما أصيبت مدرعتي، فما أن قفزت منها، حتى شاهدت طفلين، أحدهما يحمل مدفع آر. بي. جي، وفي يد الثاني رشاش، كانا هما اللذان دمرّا مدّرعتي، لقد كادا يأسرانني".

3

توقف الفتى عن الكلام، جال بناظريه في الوجوه من حوله وعاد إلى الصحيفة:

"ضابط إسرائيلي آخر، صرح لمراسل إحدى الصحف بأنه خلال اقتحام مدينة صيدا، فضل أن يكون في المقدمة لكي يرفع من معنويات جنوده، وفجأة وجد نفسه محاصراً، والقذائف المضادة للدروع تتساقط من حوله غزيرة، ولاحظ أن معظم المدافعين هم من الأطفال والفتيان، يركضون في كل اتجاه، ويرشقون الإسرائيليين بالقذائف، وأنه لن ينسى أبداً ذلك الطفل الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وهو يعاجله بقذيفة آر. بي. جي، دمرت مدرّعته، وجعلته يسبح في دمائه".

سكت الفتى، طوى الصحيفة، أعادها إلى جيب سترته، وهو يضيف:

–اليوم نطمح للارتقاء بجهادنا إلى مرحلة متقدمة، فتؤلم ضرباتنا العدو، وتزرع الذعر في قلوب قادته وأفراده.

واجهته مجموعة العيون الفتية، فانخفضت نظرته إلى الأرض أمامه، ثم ما لبث أن رفع رأسه أكثر فأكثر وهو يسأل:

–أتظنون هذه الحال دائمة؟

ردّ أحد الفتيان:

–صدورنا ممتلئة بمشاعر التحدّي، أرواحنا تخفق مشتاقة لأداء عمليات كبيرة، تثأر للشهداء، وتحدّ من غطرسة الغزاة.

أضاف ثانية:

–سنواصل الحياة، لا بد أن يأتي الغيث، فنروي الحقول، ونغرس الأشجار من جديد.

رأى زياد وجوه الفتيان مكتسية بالانفعال والحزن فاستأنف الحديث:

–ليس بيننا وبين إلحاق الهزيمة بعدونا إلا مسافة قصيرة، وفي الوقت ذاته، لا يفصل أحدنا عن الاستشهاد أي فاصل.

ارتفع صوت حاد مشوب بنفاذ الصبر:

-لا حاجة بنا إلى هذه المقدمات، نحن نتلهف لتنفيـــذ عمليّات جديدة!!

ارتسمت ظلال ابتسامة على وجه زيـــاد، وانطلقـــت الكلمات من بين شفتيه تشرح مفردات المهمة القادمة.

■■

طريف يرسم

انطلق طريف إلى باب البيت، حاول فتحه ليخرج ويلتقي برفاقه الأطفال، وجد الباب مغلقاً، لم يقدر على فتحه، ضربه بقبضتي يديه، سمع صوت والدته:

-هيا يا طريف، ادخل غرفتك، واقرأ قصصك.

-أريد أن أذهب إلى الحديقة يا ماما، رفاقي ينتظرونني.

-التجول ممنوع يا طريف، الزم غرفتك.

نظر طريف من النافذة، رأى الشوارع خالية، فارقها الأطفال، والأشجار هجرتها العصافير، تعصف بها الريح. ولاحظ سحابة قاتمة تملأ الأفق، وتزحف نحو قرص الشمس، لتلقي بظلها على المدينة المحتلة.

أسند طريف وجهه إلى الزجاج البارد الذي يسدّ النافذة، ثم رجع إلى الباب يريد فتحه فسمع أمّه تقول:

-طريف.. الباب مغلق بالمفتاح.

-أريد أن أخرج

-قلت لك، التجول ممنوع، عُدْ واجلس هادئاً.

ملأ الحزن والغضب صدر طريف، وقف من جديد أمام النافذة يراقب الشارع. الصمت وحده يملأ الطريق، يسيطر على كل شيء.

ارتجفت أعضاء جسم طريف، تمنى لو يقدر على هدم الجدار. التجول ممنوع، وجنود الأعداء وحدهم ينتقلون بحرية من مكان إلى مكان في أرجاء المدينة.

تناول طريف علبة أقلامه، أحضر ورقة كبيرة، ثم أخذ يرسم المدينة. خطّ أشكالاً، مزج ألواناً، أقام مباني جميلة بيضاء، أنشأ حدائق خضراء، صبغ البحر بلون أزرق فاقع، سرعان ما تحوّل إلى لون قاتم. فقد غطّت الغيوم الداكنة المدينة، وألقت بظلها على كل الأشكال.

في الميناء هناك سفينة ممزقة الأشرعة، محطمة السواري، والأشجار قد تلونت بالأحمر القاني.

لم تعجب اللوحة طريفاً، تناولها فمزقها، لكنه أخذ أقلامه ثانية، ورسم بحراً أزرق، امتلأ البحر سفناً ترفع أعلام القراصنة، على ظهرها رجال في قسماتهم ترتسم علامات الشر والطمع والعدوان.

اصطبغ البحر بلون أسود، وانتقلت يد طريف إلى سماء اللوحة تلونها، فإذا هي ملأى بطائرات تلقي قنابلها على السكان، فتقتل الأطفال. طائرات تروح وتجيء، في جو المدينة، هديرها، صوت انفجار قنابلها يُصمّ الآذان، يفتك بالأعصاب. ارتجفت أنامل طريف، سقطت منه الأقلام، تناول اللوحة، أتلفها ثم جلس مُسنداً رأسه بين كفيه الصغيرتين.

-ماذا يرسم؟

أخذ طريف ورقة جديدة، تحرك القلم الأخضر، صوّر حقلاً غرسه أشجار برتقال وزيتوناً ونخلاً. كبرت الأغراس، اشتعلت أزهاراً. فجأة، اقتحمت دبابات الأعداء البساتين اليانعة، داست عجلاتها التربة الناعمة، سحقت الجذور بوحشية، اقتلعت الأشجار، أحرقتها بنيران ملعونة، أضحت الخضرة سواداً، والأزهار رماداً.

أتلف طريف اللوحة، وعاد إلى وجومه وشروده وحزنه. مرّة أخرى تناول طريف ورقة بيضاء، خرجت الأقلام الملّونة من علبتها، رسم مدينة لها ساحة واسعة.. في الساحة أطفال يرشقون جنود الاحتلال بالحجارة، لا يخشون أسلحتهم، يتوجهون نحو البحر، ينصبون عند الشاطئ تمثالاً للوطن، يظهر جنود الأعداء ثانية حاملين أسلحة، يطلقون قنابل وغازات سامة، في

ينظر طريف من النافــذة إلـــى الـــشوارع فيراهـــا مزدحمة بمجموعات من الأطفال والفتيان المبتهجين، تملأ أصوات ضحكاتهم شبابيك البيوت.

■■

في بيت ساحور

على الرغم من أصوات أزيز الرصاص، والخوف من اقتحام المحتلين بيته في أية لحظة، ومع رائحة الموت، والشعور بالغثيان. سيطرت على جسده رعشة فرح وحماسة، فالمدينة تعيش عرس غضبها، وتستمرّ في عصيانها قوانين الذلّ.

اختلط الليل بالنهار، سقطت كل الأشياء الواقفة، وهو يحاول النهوض، إلى أن تمكّن من استخدام قدميه، والسير إلى نافذة تطلّ على السماء. فرأى القمر بدراً مضرجاً بالدم، يوشك أن يسقط حيث تظهر بوضوح أشباح آلات حربية، ترفع رايات غريبة.

عيون الجنود تتسلّق سلالم البيوت، تذبح الحياة في قلوب الشوارع، تطفئ البريق في مُقَل الأطفال. تلّون ستائر الشبابيك وأغطية الأسرّة بالخطر، تحقن الجوّ

ذرفت عيناه، تلّوت أمعاؤه مضطربة، ودّ لو تنغلق النافذة، لكن الظلام أمسك برأسه وصَلَبَهُ على الجدار، وابتدأت العتمة تلفّ بصره، وترفع كفها في وجهه.

في الدجى الساجي سمع عواء ذئاب، ونباح كلاب، فأدرك أن سكان المدينة صامدون، يقعون أجساداً نازفة، برتابة آلية، وطلقات الأسلحة الحديثة المتطورة تؤدي مهامّها، لا تتوقف أمام وجه، لا تميّز بين الأعمار والأشكال توجهها أيد مدرّبة ماهرة، فتصيب الأهداف كلها بيسر وسهولة ودقّة.

ينتصر التعب والارهاق على الخوف والترقّب، فيسيطر النوم عليه دقائق، يقف في أثنائها على طرف العالم، يتخيّل وجود مدينة يمتدّ البحر أمام شاطئها الرمليّ الهادئ، ويطلع عليها القمر بدراً مشعّاً كلّ ليلة، فلا تنمو فيها الأشجار الوحشيّة.

وبين النوم واليقظة أحسّ فراغاً خاوياً مكان عينيه، ورأى في عتمة الفجر قطعاناً من الوحوش تحتل البساتين، تقتلع أشجار الزيتون، وتزرع مكانها الصبّار الشوكيّ، ثمّ تتقدم فتسكن البيوت والعلالي. تروح وتجيء جماعات، عبر الطرقات والساحات في حركة دائبة.

كان مايزال نصف نائم عندما دبّت ساقاه إلى حيث سرير زوجته، رآها راقدة على ظهرها وقد فتحت فمها، وجحظت عيناها، وتيبست عضلات جسدها، فبدت أطول مما كانت، حبس بكاءه في صدره، فانفجر فحيحاً مخنوقاً من فتحات وجهه، وقع شيء في جوفه وتحطّم. أغمض عينيه جلس على الأرض وراء الباب، دافناً رأسه بين كفيه المرتجفتين، والمدينة تتوجّع وتئن.

من جديد يتهاوى جسده، فيغفو دقيقة أو دقيقتين ويحلم أنه في منزل مضاء بنور الشمس.

ــ افتح النافذة، أكاد أختنق.

لم يستطع إجابة طلبها، فقد أزّت قذيفة أمام باب البيت، وامتلأ الكون بضجيج هائل. انهار العالم من حوله، وسقط على البلاط فاقداً الوعي.

عندما صحا، سمع أنيناً خافتاً، فزحف نحو مصدر الصوت، وجد زوجته في زاوية الغرفة ميتة، تاركة فمها مفتوحاً،مملوءاً بسائل أرجواني، وجسدّها غارقاً في بركة من الدماء اللزجة.

جرّ نفسه إلى خارج المنزل، وقع على العتبة، سال الدم من ركبتيه، ومرفقيه، نهض، انزلق فوق درجات السلّم، سار معانقاً الجدران في الشارع، متخيّلاً أنه سيجد وسيلة تنقله بعيداً، لكنه لا يقدر على الوصول. مشى في

ــ يُمنع التجوّل من الليل إلى الليل.

ــ يُمنع إشعال أي ضوء.

ــ يُمنع.. يُمنع.. يُمنع..

الحرائق تلتهم جسد المدينة في أكثر من مكان، وعشرات الفيلة الضخمة تجتاز بوابتها، تدخل شوارعها من الجهات الأربع، تقف في الزوايا والساحات، منفردة أو مجتمعة، يسوقها رجال غريبو الهيئة، يحملون سكاكين كبيرة قاطعة، وعلى وجوههم ابتسامات ساخرة ماكرة، طافحة بعلامات الكبر والتعالي.

تابع الرجل سيره بلا هدف، جَرَتْ ساقاه على غير هدى، خرج من ثغرة في الجدار، وجد نفسه في مقبرة مترامية الأطراف، ارتفعت الجماجم من قبورها تحدّق إلى وجهه وتشتمه.

نَكَصَ يريد الرجوع، ضلّ الطريق، عدا بين الهياكل العظميّة، وشواهد القبور تضرب جبينه وتدميه.

في خارج المدينة رأى الأراضي الزراعيّة ممتدة بلا نهاية، ترتدي ثوبها الأخضر البديع، فتظهر جميلة متناسقة، والأشجار تلتفّ وتتعانق في السفوح والتلال.

نظر إلى ما وراءه، كانت قافلة من سيارات النقل تخرج من أبواب المدينة، تحمل أثاثاً وأدوات منزلية منهوبة، يحرسها جنود مدججون بالسلاح.

توقّف، جلس على التراب، جمع كومة من أغصان الزيتون الجافّة، أشعلها، التهمت الشعلة الأعواد اليابسة، انتشرت النار. بحر النيران المتأجّجة يزحف باتجاه بوابات المدينة، في حين تبزغ ملامح الصباح من وراء الهضاب الشرقية.

■■

بين كتابين

من كتاب أصفر

قَلَبَ الرجل صفحات سِفْرٍ قديم مهترئ، قَرَأَتْ عيناه العبارة التالية:

((قبل ظهور المهدي المنتظر ليملأ الدنيا عدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً، يخرج الدجّال، ويدّعي أنه المهدّي، فيضلُّ أناس كثيرون، لكن الحقّ يزهق الباطلَ في النهاية، ويكشف النور الظلام، فيقضي المهدي على الدجال، ويخلّص المؤمنين من شروره))..

في جوف الليل

في الخارج، الظلام يملأ أفواه الشوارع، يغطّي عيون الساحات، أمّا في داخل الغرفة، فابتسامة المصباح تضيء المكان، وقَلْبُ الساعة المشدودة إلى الجدار يدقّ برتابة.نهض الرجل الجالس في الغرفة، خرج إلى

القمر لا ينير

أيقظه صوت أجراس الكنائس، انتفض في فراشه، نهض خائفاً، ألصق وجهه بزجاج النافذة، نظر إلى السماء، وجد القمر هلالاً لا ينير، ونجمة الصبح تلمع بعيدة في الأفق الشرقي.

لاحظ عاملَ التنظيفات يجمعُ النفايات من أوعيتها الخاصّة، ويكنسُ الشارعَ بهمّة عالية وحماسة، دون أن يتطرّق إليه الكلل.

الشرنقة

خرج الرجل ثانية إلى الشرفة، رأى اللّيل ينظر إلى المدينة بوجه قاتم، والريحُ تهب باردة جافة، لا رطوبة فيها، تدفع في الجوّ غيوماً داكنة تمرّ مسرعة دون أن تجود بقطرة مطر..

ارتجفت أعضاء الرجل من البرد، انكمش داخل جلده، انسحب من الشرفة، أغلق الباب، ثم أسدل الستارة، وجلس يحتويه اليأس والقنوط...

أخيلة

على أحد جدران غرفة الرجل صورة أزهار متفتّحة،

على الجدار المقابل صورة لفارس عربي يمتطي جواداً أدهم، يُشهر رمحه الرديني، كوفيته خضراء، تدفع الريح أطرافها إلى الخلف، جواده يصهل، وينـدفع إلى الأمام، وفي صدره يتفجّر شوق عارم، فيمضي ضارباً في الأرض بلا هوادة. يرفس التراب ويستمرّ في الاندفاع إلى حيث يتّجه فارسه الأسمر. عينا الفارس مليئتان ببريق الرغبة والإصرار، جسمه مشدود، يكاد يسابق الفرس في الاندفاع، حتّى لقد بدا كأنّه الفارس العربي الذي تخيله الرجل، وحلم به منذ عشرات السنين. وقف الرجل في غرفته إجلالاً للفارس، واتّجه إليه يريد أن يقبّل مواطئ حوافر فرسه، لكن الرجل لاحظ أنّ الفارس يضرب برمحه في الفراغ، وأنّ مؤخرة رأسه زاخرة بصور وأخيلة غريبة غير مفهومة، فعاد الرجل إلى جلسته، يتأمل ويتألّم!!...

في الفجر

ليلة الميلاد، الصقيع في الخارج يجمّد النّسغ في عروق الأشجار، والأحلام الوردية تفيض بها أذهان الأطفال، أما الرجل فقد جلس في مقعده، يلتهم قلبه القلق، ويملأ صدره الخوف. أخذ الرجل قلماً وورقاً، شرع يكتب

الرجوع

ارتفع صوت المؤذن انتشر الصوت في جوّ المدينة على الرغم من الصقيع. أسدل الرجل الستارة على وجه النافذة، عاد إلى مكانه، تمنّى لو ينام قليلاً، لكنه نهض وخرج إلى مسجد قريب.

دخل، جلس مع المصلين اتجه إلى الله بقلب مملوء بالرجاء والتوسّل، انطلق لسانه يتلو دعاءً حاراً، انتهى المصلّون من أداء فرائضهم، وما زال يتلو أدعيته، ويتوسّل.

أخيراً قام يريد العودة إلى بيته، لم يجد حذاءه الذي تركه عند باب المسجد، فرجع إلى منزله حافي القدمين.

دعوى

توجه إلى محكمة المدينة وفي يده شكوى تقول: ((الدجال يلاحقني، أجده أينما توجهت، بين كلّ فئة من

رأيت وجهه بين الفلاحين، مع مالكي الأراضي والتجّار، وعندما دخلت إلى مجتمع العمال اكتشفته متنكراً بزي عامل. هربت منه، لكنه ظل يلاحقني، اختبأت بين الجنود والبحّارة، في المدارس والكنائس والجامعات، في الأسواق والمقاهي، مع كلّ خطوة من خطواتي، يتراءى لي وجهه المخادع ناظراً إليَّ، ساخراً مني، يرمقني شامتاً متشفّياً))..

فكتب القاضي بخط يده في ذيل طلب الرجل:

((تُردُّ الدعوى فالمحكمة غير مختصة بهذا النوع من الخصومة))..

اليقظة

ما زال الرجل على قيد الحياة، يأكل، ويشرب، ينام، يستيقظ، فما يزداد إلا وعياً وإحساساً ويقظة وانتباهاً، لكلّ مايحدث من حوله.

من كتاب أبيض

الوقت مابعد منتصف الليل، ثمة مجموعة من الأولاد الصغار في الشارع يجمعون الحجارة والبراميل الفارغة والإطارات المطاطية البالية. أصواتهم أنغام موسيقى

فتح الرجل كتاباً عربياً حديث الطباعة، وقرأ:

((بعد نجاح الدجّال في نشر الظلم والضلال، يظهـر أطفال، يواجهون بالحجارة، القنابل، يقـررون أن تمتلـئ الدنيا عدلاً لا ظلماً ولا جوراً))...

■■

نجمة.. نجمتان

وصلت السيارة إلى ساحة المخيّم، أطلقت صوت ــ زمورها ــ مرتين.. أنّتْ، تنهدت، دارت في الساحة، توقفت أمام مبنى سينما "النجوم"، نزل الركاب واحداً في إثر واحد، يتصبّبون عرقاً، فحرارة الجو مرتفعة، وملابسهم مجعّدة من طول الجلوس، وشدة الزّحام، في أيديهم حقائب، انطلقوا في طرقات المخيّم المتشعّبة من الساحة، تفرقوا، كل يتجه نحو أهله، إلى منزله.

هبطتْ "نجمةُ " من السيارة، وضعت قدميها على بلاط الرصيف، أحسّت الهواء رطباً يملأ صدرها، ينعش رئتيها، يبعث الدماء نشيطة في عروقها. وعلى الرغم من أن الحر شديد، تدفقت حيويتها، وكأنما عادت طفلة، تعانق مناظر الأشجار الباسقة في الحدائق وأرصفة الشوارع، تجري حافية القدمين فوق التراب الأسمر في البساتين

سارت نجمة... في يدها اليسرى حقيبة سوداء أنيقة، وقد تعلقت نظراتها بنوافذ البيوت، وعند نافذتين عـــاليتين في جدار أبيض، توقفت العينـــان العـــسليتان الجميلتـــان، تغلغلتا في ما وراء النافذتين، رأتا أم نجمة، أخوتها، ساحة الدار، شجرة الورد، شتلات الحبق، فعانقتـــا كـــلّ مـــافي البيت، واختلطت في ذهن نجمة صور الماضي والحاضر وآمال المستقبل.

خرج أطفال من جانبي الطريق... توقفوا.. نظـــروا إلى نجمة... تأملوها... ابتسموا لها... لوحت فتاة صغيرة بيدها..... ركضت أخرى إلى أمها، وأعلنت...

ــ أمي... يا أمي!!!..

ــ جاءت نجمة..

ــ أسرعي وانظري، على كتفيها نجمتان ذهبيتان.

في المقهى، توقّف الجالسون عن احتساء مشروباتهم عندما مرت نجمة من أمامهم. وقال شاب لرفيقه:

ــ ما رأيك بما تراه؟

ردّ الآخر جاداً:

ــ منظر حضاري... والله!...

عبرت نجمة الطريق إلى أقرب البيوت من منزلهـــا، مرّت من أمام فرن الحي، حيث اجتمعت النـــسوة عنـــده يشترين الخبز الرقيق المشروح.

استنشقت نجمة عبق القمح البلدي.. اختلطت رائحـــة الخبز بأنفاسها، التفتت إلى النسوة وحيّتهنّ قائلة:

ــ يعطيكنّ العافية..

ردت النساء تحيتها بأصوات مختلطة، هرعت واحدة منهنَّ إلى نجمة.... همست:

ــ أنتِ جميلة، رائعة بهذه الملابس، بـــذلتك تزيـــدكِ بهاءْ، مبروكٌ لكِ... أصبحت ملازماً؟!...

ابتسمت نجمة للـــمرأة، شكرتها، وتابعـــت ســـيرها. لمحت عمها في مجلسه المعتاد، أمام دكانه رأته يقف.... ثم يجلس... لكنها لم تسمعه يقول:

ــ والله... عشنا وشفنا!!

في مخيلة نجمة شريط من ذكريات الماضي وصوره يوم توفى والدها عن بنات هي أكبرهنّ، قال الأعمام:

ــ البنات يتزوجن، لا يذهبن إلى المدرسة!!...

لم توافق أم نجمة.. خاضت صراعاً مـــع الأعمـــام وانتصرت. ربّت البنات أرسلتهن إلى المدرسة، غرســـت

افتخرت بابنتها نجمة قائلة:

ــ نجمة أول فتاة في المخيّم تنتسب إلى الكليّة الحربية للبنات، هدفها أن تصبح ضابطاً:

انطلقت زغرودة أمّ نجمة مجلجلة. استقبلت الملازمَ نجمة عند مدخل الدار، ضمّت ابنتها إلى صدرها. عانقتها. زغردت ثانية وثالثة. أسرعت إلى داخل المنزل، أحضرت علبة مملوءة مُلبَّساً بلدياً وسكاكر. نثرت المحتويات بين أيدي الأولاد المتجمهرين أمام باب البيت..

■■

رقصة البنادق

تنقلب الأشياء الواقِفة كلّها. تلتهم الحرائق جوانب من جسد القرية. يمتلئ الهواء برائحة الدم، الدبّابات تدخل من الجهات الأربع، خلفها رجال يراقبون.. يفتشون.. يوقفون نسغ الحياة في العروق، يقتلون الأشـــجار.. يحرقونهـــا، يطلقون النار.. حتى الماشية.. يقتلونها...

يصيح الأطفال في البيوت:

ــ نحن جياع ... نريد حليباً... طعاماً.

ذرّفت عيون الأمهات دموعاً حـــرّى، اتجهـــن إلـــى مخازن الغلال، وبيوت المؤن، لم يظفرن بشيء. ســـرن إلى زرائب الماشية يلتمسن حليبها، عُدنَ والخيبـــة فـــي وجوههن، قلن للآباء والأخوة والأبناء:

ــ لم تعطِ الأبقار والأغنام قطرة حليبُ واحدة!

ارتفع صوت بكاء الأطفال الجياع من البيوت كافّة.

ومضى الآباء والأخوة والأبناء إلى مواشيَهم.. رأوها حزينة تلهث وتخور. جفّتْ فيها الضروع،، فسألوها:

ــ لماذا توقفتِ عن إعطاءِ الحليب؟

ــ أطعمونا عشباً أخضر، نُعطِكم ما تطلبون. هــرع الرجال والفتيان والصبايا إلى الحقــول والبــساتين. رأوا أشجارها محروقة مُقتلعة، وأعشابها جافة.

رجوها قائلين:

ــ من أجل الأطفال الصغار الجائعين. نريد عــشباً أخضر غضّاً نقدمه للأبقار، للأغنام.. فتعطينا حليباً.

تأوّهت البساتين، زفرت كلماتها فحيحاً فــي وجــوه الناس:

ــ نحن عطاش يا أصدقاء.. تكوينا حرقة الظمأ.

ــ اسقونا ماء نُعطكم عشباً يانعاً لمواشيكم.

جرى الآباء والأخوة والأبناء إلى عين ماء القريــة، سقط بعضهم في مجرى ماء النبع، هتفوا:

ــ أيتها العين.. أطفالنا يموتــون جوعــاً وعطــشاً، البساتين جافة، الأشجار محروقــة، الماشــية لا تعطــي الحليب إلا إذا ارتوت مــن مائــك العــذب، فنــسألكِ... الماء.... الماء.... الماء.... ضحك النّبع متألماً، ونظــر في وجوه القوم معتذراً:

ــ جفَّ مائي يا إخوتي.. فالأمطـــار توقّفـــت عـــن الهطول منذ زمن طويل.. ولست بقادر على تلبيـــة مـــا تطلبون.

حار الناس في أمرهم، ضاقت بهم الأرض، فـــسألوا النبع:

ــ أما من سبيل لعودة مائك؟

ــ بلى.

ــ كيف؟..

ــ رقصة البنادق...

ــ ما رقصة البنادق؟

ــ يجتمع أهل القرية رجـــالاً.. نـــساءً... أطفـــالاً، يحملون البنادق، ويرقصون من حولي، فـــوق ســـطحي، رقصة البنادق، رقصة دبكة عنيفة تحرّك دماء عروقـــي، وتبعث المياه متدفّقة من جوفي، عند ذلك فحسب ترجـــع مياهي عذبة متدفقة صافية، كما في الزمن الغابر.

توافد سكان القرية إلى العين من كلّ صوب، يحملون بنادق في أيديهم، ويؤدون الرقصة حـــول النبـــع وعلـــى سطحه. ففاضت ميـــاه النبـــع ورَوَتِ الأرض، فاكتـــست البساتين والحقول خضرة رائعة.

تناولت الماشية العشب الطريّ، درّت حليبـــاً دســـماً

وانتشرت رقصة البنادق بين سكان القرى، فأضحت رقصة شعبية للمنطقة بأسرها.

■■

حجارة ... وقنابل

تغلب عليه النعاس برهة، أغمض عينيه، ارتسمت الصور في ساحة حلمه. رأى الفتيان يقذفون أفراد جيش الاحتلال وسياراته بالحجارة، يسدون مداخل الطرق بالبراميل الضخمة والإطارات المطاطية المحترقة. تنفجر قنابل دخانية مسيلة للدموع، ويطلق الجنود المدججون بالسلاح رشقات من نيران بنادقهم. تنهال الهراوات الضخمة على رؤوس الفتية وأكتافهم وأذرعهم، تختلط الأصوات، وتبقى صورة فتى من الفتيان تشد اهتمام الرجل، تتابعه عيناه، يخشى عليه حيناً، يشجعه أحياناً، يريده أن يقدم، فيضرب جنود الغزاة بأحجاره، لكنه يخشى عليه أن تصيبه متفجراتهم أو طلقاتهم أو شظايا قنابلهم. ويدق قلب الرجل دقاً عنيفاً إذ يرى الفتى، يسدد قذائفه الحجرية بمهارة، ثم يتحرك مسرعاً رشيقاً، فيصرخ ملء فيه محذراً، عندما يلاحظ جندياً يقترب من ابنه، يرفع

يستبدّ المشهد بالرجل في اليقظة وفي الحلم، ينغــرز خنجر الألم في قلبه وعقله معاً، تمتلئ الغرفــة بعــشرات الوجوه والأشباح، وتصفق الريح خشب مصراع النافــذة بقوة ترشق في عيني الرجل حفنة من رمــال العاصــفة، تحمر المقلتان، تدمعان، تعيده الحرقة إلى نفسه، فــيجلس منطوياً أمام سرير الفتى الجــريح. ألــصق الأب وجهــه بزجاج النافذة يراقب غبشة الصباح عند الفجر ممتزجــة بضياء قمرٍ مختبئ في طيات غيوم داكنة، تدفعها الــريح أمامها، فتسير راكضة باتجاه الهضاب.

يسمع الرجل صيحات ديكة من بــساتين ومــزارع قريبة، وصوت عربة يخترق هدأة الصباح الباكر، لكــن الضوضاء سرعان ما تبتعد، لتسيطر السكينة من جديــد، فيتابع ملاحقة مقدم النهار، طارداً أمامه فلول الليل. ويبدو

يعاني الرجل من حرقة في عينيه، وغصة في حلقه، وفراغ في جمجمته، يلتفت إلى زوجته، يجدها مستسلمة لموجة من الحزن، أخفاها الخوف والأسى، وهدّها السهر والقنوط، تجلس على كرسي مسندة رأسها إلى الخلف فاتحة فمها لليأس، وقد جحظت عيناها، وجمدتا على المنظر الثابت المتلاحق المحموم.

تتوالى في بصيرتها الصور المبعثرة، وتتركز حول ولدها المصاب. ترجع بها الذاكرة إلى المهد الصغير، والطفل الوليد يشب، ينمو، وكسائر أبناء هذه الأرض، ينتفض ضد غزاة احتلوا تراب الوطن، ودنسوا مقدساته، استباحوا حرماته، وأخذوا يمسحون حروف الأسماء، ويبدلون البطاقات الشخصية لسكانه.

قال الطبيب الكهل:

-إذا عاش حتى الصباح فهناك أمل كبير.

-أنت رجل شجاع، ولن أكتمك الحقيقة.

التفت الأب إلى النافذة، خيوط من الضياء الصامت الباهت تتسرب على الرغم من طبقة الغيوم الداكنة. تنسحب العتمة، تبدو الأشياء واضحة جليّة.

وضع كفّه على جبين الفتى، ما تزال الحمّى مسيطرة، فتح الجريح عينين متعبتين مغرورقتين، نظر إلى وجه أبيه نظرة مطفأة، حاول أن يتكلّم، خرج صوته همساً ضعيفاً. ارتجفت شفتاه الرقيقتان، ثم أغمض جفنيه.

كان قلب الرجل يتحطّم، ينشطر، يتفجّر، فانهزمت ساقاه من تحت ثقل جسمه المتهدّم، جلس على مقعد أمام السرير، واضعاً رأسه بين كفّيه. مضت دقائق وهو في وضعه كتمثال، وفي داخله نيران تتلظّى، وأمواج عواطف وأفكار تضطرب.

لم يكن مستسلماً لضعف الحلم. جاءه صوت تنهدات ونواح، سمع عويلاً مكتوماً وارتفع صياح الأمّ المفجوعة:

-ولدي.. ولدي.

-مات.. مات.. ما..ت.

لم يفتح الرجل، عينيه، لم يتحرّك، جمد حيث هو.

-اذهبي إلى غرفتك، لا أريد نحيباً.
كان الأفق الشرقي قد أصبح بلون الدم؟...

■■

سلوان

1-شكوى

تقدم رجل عربي من حي سلوان في مدينة القدس بشكوى إلى قاضي المدينة يقول:

خرجت من داري صباحاً، توجهت إلى عملي كما كنت أفعل منذ سنين طويلة، وذهبت زوجتي مع طفلنا الصغير لزيارة أهلها في حي مجاور، وعندما عدت مساءً إلى بيتي واجهتني بندقية يحملها رجل احتلّ داري وصرخ في وجهي:

-ابتعد.. ابتعد.

-إنه بيتي، فيه سريري وفراشي..

-المنزل فارغ شاغر من السكان، ومن حقي السكن في أي بيت خالٍ.

حضر رجال الشرطة، دفعوني بعيداً، منعـوني مـن الدخول.. لذلك أطلب إعادتي إلى داري وجمع شمل أسرتي.

2-ضياع

وجد نفسه هائماً على وجهه، يقذفه الطريـق، إلـى طريق آخر، يسلمه رصيف إلى رصيف. تاه بين الأزقة، وفي رأسه تضج الأسئلة:

-ماذا يفعل؟

-أين يذهب؟

الأرض من حوله مزروعة بأشخاص غرباء، يخفون تحت ملابسهم أسلحة، يشهرونها في وجهه كلّمـا التفـت ناحية سلوان.

سار مطرقاً في الزحام، عبارات الشتم تندفع من فمه، ساقاه تتحركان، تتقدمان، تسيران على غير هـدىً بـلا هدف محدد.

قادته قدماه إلى حي لا يعرفه، حي قديم رأى فيه ألف زقاق معتم، الأزقة كلها تنتهي بفروع مسدودة. تجوّل بين البيوت، نادى زوجته، ابنه، أطال النظر إلى الواجهـات العتيقة ذات الخشب المهترئ، والمسامير الصدئة، وكلمـا لاح له وجه إنسان من فرجة باب، سأله عن أسرته، وعن الطريق إلى منزله في سلوان.

3-تجوال

انطلق في زقاق طويل مستقيم، أوصله الزقاق إلى شارع عريض، قاده الشارع إلى قلب المدينة. جرّ قدميه فوق بلاط الرصيف، كأنه يقتلعهما بصعوبة بالغة، فتدافعته المناكب، وجرفه التيار.

نقّل عينيه بين أشخاص وأشياء ووجوه، توقّف أمام مخازن وإعلانات، قطع شارعاً ثم آخر، توقّف مع المارّة أمام النور الأحمر، ظلّ يرى في خياله بيته في سلوان، دون أن يقدر على الوصول إليه أو الاقتراب منه.

4-ركض

عاد إلى السير في شوارع المدينة، ينظر في وجوه الناس من حوله، يتشبّث بخضرة الأشجار، يتعلق بضياء الشمس.

وعندما جلس في ركن منزوٍ من أركان أحد الميادين، بدا العالم في ناظريه صغيراً، قميئاً، قزماً.

نهض ثم انطلق يضرب في الطرقات، يفتش عن مدخل إلى بيته، سأل الناس جميعاً، لم يقدر واحد منهم أن يرشده إلى هدفه.

فجأة ظهر في ركن قصيّ من الشارع شخص يعرفه، ركض نحوه، رجاه أن يدله على الطريق إلى سلوان،

-تعبت من الركض والتجوال.

-تورمت قدماي من طول السير.

-أريد أن أعود وأطردهم من داري.

-خذوني إلى ولدي وزوجتي إنهما ينتظراني.

5-تصورات

تخيل زوجته وابنه قادمين نحوه، يسيران بخطا بطيئة وئيدة، يتجهان إليه وفي صدريهما مثلما في صدره من شوق ولوعة. اتسع الشارع، صار ساحة واسعة، اقتربت الزوجة والولد، رأى بيته في سلوان، وجد نفسه على باب منزله، وراءه تقف زوجته وابنه، أخرج مفتاحاً للباب، أداره في القفل وقد التصقت بوجهه ابتسامة راضية، وتلون العالم بالأخضر الفاقع.

انفتح الباب، رقصت قطع الأثاث، دخلت العصافير من النوافذ، ملأت البيت زقزقة وتغريداً فجأة يبرز رجل يحمل بندقية، يشهرها في وجه ابن سلوان. ويشير إليه أن يتراجع ويخرج، ترتجف أعضاء الرجل، يخطو إلى الخلف وفي صدره حرقة، تبقى حبيسةً أمام فوهات الأسلحة الجاهزة للإطلاق في أية لحظة، وانغلق باب

■■

((أحمد))

لا أحد من وحدة جنود (الباقورة[1]) ينسى يوم جاء (أحمد[2]). اتجه إلى قائد الوحدة بخطوات ثابتة واثقة حيّاه، قدم نفسه، لفت انتباه أفراد الوحدة بأناقته، وجدّة البزّة العسكرية التي يرتديها. شبّهه بعض الجنود بتمثال يتحرك، يسير، يقف، وقسمات وجهه الأسمر تنمُّ عن ثقة بالنفس عميقة. شاربه الأسود العريض يكمل رسم صورته، يده اليسرى ثابتة ملتصقة بجسمه، واليمنى ترتفع بالتحية. لسانه يتحرك، صوته الأجش يملأ المسامع:

-الجندي أحمد.. سيدي...

عندما وقعت الحادثة وتلقفتها وكالات الأنباء،

---

(1) الباقورة: بقعة من الأرض العربية الأردنية -ملاصقة لأرض احتلتها إسرائيل.

(2) أحمد الدقامسة: جندي عربي أردني -أطلق النار على مستوطنات إسرائيليات سخرن منه وهو يؤدي الصلاة.

لا أحد من جنود الوحدة ينسى يـــوم قـــدوم أحمـــد، الجندي الفارع القامة، الأنيق، المنضبط. وهو يمشي فـــي بزّته العسكرية، وياقةُ قميصه مرتفعة قليلاً، وربطة عنقه ملفوفة بعناية وبندقيته لا تفارقه لحظة، حتى عندما يؤدي الصلاة، يضع البندقية إلى يمينه، في متناول يده، كأنمـــا كان يتوقع أنه قد يحتاجها في أية لحظة!!. بعد الحادثـــة، صار الجميع يعرف، لم يعد ثمة شـــيء مـــن صـــورته المرتسمة في أذهان كل الناس، فلقد نـــشرتها الـــصحف، وتناقلتها شاشات التلفزة. ولعلّ ما أدهش الجنود من رفاقه في الوحدة، أنّ كلّ شيء في صور أحمد، هو ما رأوه فيه حقيقة منذ التحاقه بالموقع، حتى النظرةُ الشاردة على وجه أحمد، تلك التي تعطي انطباعاً حنوناً شفافاً، ظهرت جلية واضحة على سحنته المطبوعة في الجرائد.

اكتشف جنود وحدة الباقورة أنّ أحمد لم يكن متكبراً،

-لماذا يريدون فناءنا؟

-كيف يقتلون المصليّن وهم في صلاتهم ساجدون؟

كان أحمد مداوماً على أداء فروض الصلاة، ارتبطت صورته في أذهان جنود الوحدة بأنه لم يكن يترك بندقيته عندما يؤدي الصلاة، فيضعها إلى يمينه، قريبة من متناول يده، ويستغرق في عبادتـــه، دون أن تغفـــل عينـــه عـــن سلاحه، وكأنما كان يتوقع ظهور (غولد شتاين([3]) ثانيـــة -في غفلة- من خلفه أو من جانبه، فيطلقَ عليه رصاصهُ الحاقد لأنه يصلي فحسب!! فغولد شتاين يطلق نار تعصبه على المصلين دون تمييز. صار أحمد واضح الملامح في أذهان الناس، فلا تمر ساعة من الليل أو النهـــار دون أن يُذكر اسمه، أو تطبع صورته. حتى أشياؤه التـــي خلفهـــا وراءه في وحدة الباقورة، ملابـــسه، أحذيتـــه، جواربـــه، مقتنياته كلها أدرجت في قوائم خاصة، ووصفت بإسهاب

([3]) غولد شتاين: متعصب إسرائيلي أطلق النار على المصلين في الحرم الإبراهيمي في الخليل فقتل ثلاثين منهم.

لماذا تحيط به عدسات المصورين، وينبثق اسمه من أفواه أجهزة الراديو، وتلتصق صورته بشاشات التلفزة؟؟ أبعدَ سنوات من احترافه الجندية، يسوقونه مكبلاً بالأصفاد؟ يقف بين حين وآخر ليطوّف بنظراته على وجوهِ من حوله، فيرى كل شيءٍ غريباً، ليس بينها ثغر واحد يبتسم، ليس في أي عين ألقُ الحياة. حتى الأضواء الملونة جاءت باردة.. باردة، وآلات التصوير، بدت تؤدي وظائفها برتابة جامدة. تلفظُ من أفواهها أضواءً مثلجة، تقع على وجهه، فتشقق جلده.

لم يكن يتصور أنّ هناك من سيأخذ له مثل هذه الصور، فهو جندي عادي قادم من أطراف الأردن، يؤدي واجبه الاعتيادي فحسب. صحيح إنه كان يقف شارداً بين حين وآخر، يتجه ببصره نحو المسجد الأقصى، ويحلمُ أن

يسأل نفسه:

-كيف يقتلون المصلين غدراً لحظة توجههم نحو رب العالمين خاشعين؟

رصاص غولد شتاين يلاحقه، وجه القاتل يتراءى له في كل مكان، في كل شيء. حتى عندما يقف مستقبلاً الكعبة لأداء الصلاة، وبندقيته المحشوة والجاهزة إلى جواره، يخرج شبح غولد شتاين، يتكرر ظهور وجهه المهووس فيصير اثنين، ثلاثة، أربعة.. سبعة، تهزأ به الوجوه، جميعها تسخر من صلاته، تضحك من حركاته. تغيم عيناه، في حين وجوه غولد شتاين السبعة تقترب منه، تمتد يده إلى البندقية يتناولها، يطلق النار منها رشاً في عيون الوجوه الساخرة.

أدهشه جداً انتشار صوره على صفحات الجرائد كلها، كأنما في صورته أمر هام لا يعرفه. فأخذ يحدق في أعماق كل نسخة، متلذذاً مسحوراً بملامح وجهه، تظهر له حيثما نظرت عيناه. وفي ليل حيرته وعمق وحشته، رأى وجوه الجنود من رفاقه في وحدة الباقورة، تبتسم له،

أما حواره مع لجنة التحقيق، فصراخ وحشرجة، حفر في صدره وحشة المسافر، عندما يهبط الليل، وليس ثمة شخص أو استراحة في انتظاره.

قرأت اللجنة إجاباته، فسّرت صمته وآهاته، ربطت بين تنهداته وكلّ حركة أو نبضة أو خلجة تبدو في أنحاء جسمه. سلسلة الأسئلة تتقاطع مع الأجوبة، حتى انطفأت الحرارة في صوته وفارق الألق عينيه، وتجمد الدم النازف من جروح التعذيب فوق جسده. عرفت اللجنة أنه وهو يعود إلى الصمت والشرود يريد أن لا يقول شيئاً جديداً، وأنَّ عنقه الغائصةُ عميقاً بين كتفيه، وحركاتِهِ وهو يلملم عريه خجلان مرتبكاً، وتلتقي العيون بالعيون، تبتعد الأفكار مسرعة، وتمتلئ الصدورُ سخطاً وشعوراً بأن

■■

القاتل والمقتول

1-رقصة أولى:

أفكار متضاربة في دماغ الرجل جعلت وجهه متدلي العضلات كبطيخة صفراء مهترئة، لم يعد يحسن المحاكمة، فقد القدرة على تركيز فكره، قام وقعد مراراً، امتدت أصابعه إلى مفتاح المذياع، صدحت موسيقى راقصة، وقف الرجل وانطلق يرقص. حركاته تعنف وتشتد، يتصبب العرق من جبينه غزيراً، يستمر في الرقص رغم انتهاء المقطوعة الموسيقية، يرقص على أنغام أفكار وكلمات تتصارع في رأسه، فجأة يسمع نفسه يهمس بصوت مسموع: سأقتلها...

2-رقصة ثانية:

عجب الرجل من نفسه، توقف أمام كلمة "القتل"،

ركض إلى المطبخ، استعرض السكاكين المعلقة، انتقى واحدة مرهفة ذات نصل عريض لامع، ومقبض أصفر مزين بنقوش فضية، قبضت أصابعه على عنق السكين، تخيل موقف القتل ساعة التنفيذ، أحس بالدم حاراً يصبغ يديه، يلطخ شعر صدره العاري، يلوّن الفراش والجدران وكل الأشياء في العالم.

وضع السكين على المنضدة، ثم انطلق يرقص على أنغام قطعة موسيقية جديدة.

3-من ذاكرة الرجل:

يوم قبّلها لأول مرة، شعر بأنّ الأرض تهتز من تحت قدميه، ذاق من شفتيها طعم الشهد المصفى، شمّ في شعرها رائحة البخور الهندي. يومئذ همس في داخل نفسه:

-ما أروعها من زهرة عبقة الشذى، لم تمتد إليها يد إنسان بعد بالدنس والزيف والرياء.

4-صفحة ثانية من الذاكرة:

-"إنها فتاة رخوة"

رخوة!! رخوة!!... استطال حرف الـــراء، أصـــبح سيفاً مسموماً، انغرز السيف في قلب الرجل، أحس بدماء فؤاده تنسكب في أحشائه، جف حلقه، ملأ الملـــح فمـــه، تفصّد العرق من جبهته غزيراً، غابت عيناه برهة، عـــاد بعدها ينظر في وجه محدثه مخفياً انفعاله ويقول بـــصوت بارد النبرات:

-رخوة؟ كيف عرفت ذلك؟

ابتسم الرجل الآخر، امتلأت سحنته بالمعاني الثعلبية والادعاء. نطق كلاماً كثيراً.

غمر ضباب غير مرئي عيني الرَّجل الأول، التصق لسانه بسقف حلقه، وَدّ لو يلقم فم الآخر حجراً، لو ينهـــال عليه ضرباً، ويشبعه سباباً وشتماً، لكنه تماسك، وأظهر لا مبالاة مفتعلة، بينما كان حديث داخلي يدور فـــي صـــدره "إنها حبيبتي أيها الأحمق، خطيبتي، المرأة التي استأثرت بفؤادي، في عينيها أرى ربيعي وصيفي، أمواج شـــعرها الكستنائي تحمل إليّ أجمـــل وأرق الأحـــلام، ضـــحكتها، مشيتها، قالت لي إنها تحبني، إنها لي وحدي، فكيف أقبل هذا الهراء؟؟... هراء... هراء...

5-عودة إلى داخل الرجل:

تحطمت الأشياء، امتلأ العالم بالضجيج، انقلب كل ما كان واقفاً، امتزجت الألوان واختلطـــت، أصـــبح لعابـــه

"كم قلت لك أيتها الغالية أن تكوني معي صادقة، أريدك صادقة فحسب، أنا لست كواحد من هؤلاء الذين من حولك، أنا أريدك حبيبة، وصديقة، رفيقة درب، فلا تكوني مثلهم".

6-صفحة ثالثة من الذاكرة:

كان صبياً في التاسعة أو العاشرة من عمره، يجلس تحت شجرة التين في الطرف الغربي من البستان، قال له والده:

-انتبه جيداً، وامنع أي إنسان من قطف الثمار، احرص على ألا تدخل دابة بين الأشجار. وفي كل عام كان الصبي يقوم بالعمل ذاته، حتى أصبح يعشق أشجار البستان، وفي قلبه الصغير احتفظ بمودة خاصة لكل شجرة من أشجار الحقل، لا تختلف إلا بمقدار اختلاف الذكرى التي تربطه إلى هذه الشجرة أو تلك. ففي شجرة الزعرور كان يضع قضبان "الدبق" في كل ربيع ليصيد العصافير المهاجرة، وفي شجرة التوت ينصب أرجوحته في الصيف، وفي الزيتونة العتيقة يراقب أعشاش عصافير الدوري والحساسين، والحور يعشق قاماته المديدة، يتسلقها فيشرف على ما حوله، وكأنه يقف على قمة جبل.

تحت شجرة التين جلس يصنع ألعاباً من طين،

كان مستغرقاً في لعبه عندما فاجأه صـــوت خـــشن قاس. التفت ليجد رجلاً واقفاً عند شـــجرة تـــين تنـــضج ثمارها باكراً، الرجل يمد يديه إلى الأغصان، يجذبها إليه، يقطف الثمار بلا مبالاة.

وقف الصبي... أخذ ينادي الرجل بـــصوت مرتفـــع محاولاً منعه من الاستمرار في قطف الثمار، فإذا الرجل يثور ويستبد به الغضب، فينقض على الـــصبي ويقـــبض على عنقه النحيل الغض وينهال على باقي جسده ضـــرباً ورفساً، في حين يتفجر صوت الرجل من فمـــه الواســـع صائحاً:

-"مرابع وقليل الأدب"؟ تمنعنـــي يـــا بـــن الكلـــب؟ أصبحت وأبوك تملكان بستاناً، ألم يعلمـــك أبـــوك كيـــف تستقبل أسيادك؟

سألقنك الدرس بنفسي، سأجعلك لا تنساه ما حييت".

7-هامش على بطاقة الرجل:

كلما أحب هذا الرجل شيئاً، مكاناً، أرضـــاً، امـــرأة، اكتشف أن ما تعلقه قلبه ليس له، كان في المدرسة ينـــال

8-المرأة:

رغم أنها قد جاوزت الثلاثين فهي كوردة جورية في أوج تفتحها، تبدو وهي مستلقية فوق السرير غصناً متأوداً من الزنبق الأبيض، اقتطع ليزين مائدة ملــك أو أميــر. شعرها الكستنائي كثيف طويل يرسم إطاراً بنيــاً حــول الوجه الوسيم الدقيق الملامح. الوجه مضاء بأشعة سحرية تنبعث من العينين المتألقتين. في العينين اختلطت ألــوان زرقة البحر وخضرة العشب وصفاء العسل، ومــع ذلــك ففي الوجه ظل سحابة تنم عنّ قلق وتفكير عميق. تمتد يد السيدة إلى منضدة صغيرة بجانب السرير، تتناول لفافــة تبغ أمريكية، تشعلها، تنفث الدخان في جو الغرفة راسمة

انحدرت نظرات المرأة من السقف إلى الجدار المواجه، توقفت عيناها فوق صورة مؤطرة عُلّقت منذ سنوات في مكانها ذاك، ابتسمت بمرارة، عادت بها الذاكرة إلى يوم زفافها من هذا الرجل الذي لم يكن أمامها إلا أن تتزوجه في الظروف القاسية التي كانت تمر بها أسرتها.

9-وجه الأب:

وجه "صائب بك" والدها كان عابساً طيلة الحفلة، مع ذلك كان يبتسم كلما التقت عيناها بعينيه، أراد أن يقول لها ماذا أفعل؟ فممتلكاتي الزراعية كلها شملت بقانون الإصلاح الزراعي، إنّ الذين كانوا يعملون عندي هم أيسر حالاً مني الآن، وأنت لم تتفوقي في دراستك مع أنني صرفت من أجل تعليمك أموالاً طائلة، وأرسلتك إلى بيروت، إلى أفضل المدارس الأجنبية، وأخوتك الذكور لم يتقنوا صنعة، ولا يحسنون ممارسة عمل ما.

قرأت يومذاك في وجه أبيها تاريخاً طويلاً من المجد انتهى إلى أسوأ ما كان يتوقع، حتى أنه ليرى في هذا المتقدم لطلب يدها شاباً تلتمع في وجهه علائم نجاح

10-صفحة من سجل المرأة:

امرأة ذكية واقعية تؤمن بـــالتفوّق ولا تـــستطيع أن توافق على أن في المساواة المطلقة بين الناس عدالة، تقر بينها وبين نفسها بكل ما يستطيع القوي أن يحققه لنفـــسه، وتنكر على الضعيف أن يتمتع بما للقـــوي مـــن حقـــوق، وكثيراً ما جادلت الآخرين بعدالة التمييز بين الناس، حتى التمييز العنصري تقره في الحقيقة ولكنها لا تتطرف فـــي الحديث إلى التصريح بذلك. غير أنها تتصرف على هـــذا الأساس. أحبت قبل زوجها وأحبت بعده، وتعرف جيداً أنّ كثيرين من رفاقه قد نصحوه بالابتعاد عنها، وأن لا يغامر بالزواج منها، وأنهم قـــد رددوا علـــى مـــسامعه بعـــض صفحات من تاريخها وسلوكها هنا في بلـــدتها اللاذقيـــة وهناك في بيروت، حيث قضت سنوات تتابع التعليم فـــي مدرسة أمريكية.

ولكنها وثقت بأنه أحبها فما استطاع أن يفـــرق بـــين

11-الوسادة:

بكت الوسادة حتى بلل الـــدمع وجههـــا، اختلطـــت العبرات المنسكبة بعطر شعر المرأة، ضـــمت الوســـادة خصل الشعر الكستنائي المعطر إلى صـــدرها، أســـندت الرأس، حدقت إلى وجه الرجل، رأته منتفخـــاً محتقنـــاً، وشاهدت شفرة السكين، تلتمع ابتسامتها، وتقترب رويـــداً رويداً من العنق.

12-إفادة السكين:

الرجل يضع شفرتي القاطعة فوق حنجرة المرأة، ضغطة بسيطة من يده المرتجفة تكفي لكي أغوص في اللحم الأبيض الحار، قاطعة الغضاريف والعروق، سابحة في الدم الفائر الفاتر. رائحة الدم تملأ خياشيمي، تسكرني. نصلي أبيض لامع، معدني فولاذ قاس، مقبضي أصفر مزين بنقوش فضية. ارتجفت والرجل يقبض عليَّ بقوه، اهتزت أعماقي، اضطربت جميع مفاصلي، أخذ الهلع بمجامع فؤادي، أحسست بقلب الرجل يركض في قفص صدره، رأيت رئتيه تمتلئان هواء ودماء على التناوب بسرعة غير اعتيادية. سمعت صوت آهاته تتصاعد حرّى رغم مجاهدته لكي يبقيها حبيسة صدره.

وقف هذا الرجل أمامي وأنا معلقة إلى مسمار في جدار المطبخ، حدجني بنظرة ثاقبة، تناولتني يده، قلبتني كفاه على وجهيّ مراراً، مسح شفرتي براحة يده، تحسس خدي، زفر زفرة ارتياح، واتجه بي إلى غرفة نومه. رفع طرف وسادته، وضعني تحتها. وقف برهة ثم عاد فأخرجني، دسني بين الفراش ومعدن السرير. المرأة في الفراش تحت الغطاء، الرجل إلى جانبها يرتجف، تمتد يدها إليه، تطوق ذراعها عنقه، يقبلها، تقبله. في رأسه تدور مشاهد أخرى، تتوالى في صفحة مخيلته صور

■■■

-بلال يستيقظ متأخّراً-

1-السيارة:

السيارة أنيقة، طرازها حديث، تندفع في الشارع الملتوي العريض المستلقي بين يدي البحر. الطريق والرصيف لا يخلوان من المارة والمتنزهين، لكن سكينة منتصف الليل تسيطر، أشجار الأزدرخت مصفوفة وراء بعضها في أنساق متعرجة وكأنها تحرس الشاطئ، اللاذقية المقيمة نامت باكراً، أما اللاذقية السائحة فلا تغمض أجفانها إلا مع الفجر، همس الساهرين المتناثرين في المقاهي، وعلى الرصيف البحري يصل إلى آذان الأشجار والبحر، الريح رطبة خفيفة تداعب أمواج الماء، تدغدغ أصابع الصخور، والسيارة الحديثة جداً تنساب متمهلة متسكعة، تغمر عيناها الأشياء بأنوار فضية وصفراء وبيضاء، تذهب السيارة وتجيء، تدور، تنعطف،

2-الرجلان:

وراء مقود السيارة رجل، في فمه لفافة تبغ مشتعلة، يرتدي قميصاً مفتوحاً إلى ما فوق السرة، شعر صدره كث يشكل بقعة داكنة في صفحة الليل القاتم، فوق جبينه قطرات عرق، جسده ملقى باسترخاء على المقعد، كفاه تعانقان المقود، تتحركان يميناً ويساراً ببطء وملل، فيما عيناه تنظران باستمرار إلى الرصيف وتفرعاته، تجوبان مداخل الشوارع، تنتقلان بين أبواب المقاهي المتناثرة على هامش الرصيف.

إلى جانب الرجل السائق، يجلس رجل ثان، يعتمد بكوعه على حافة نافذة السيارة، يحدث زميله دون أن يلتفت إليه، يسحب عينيه فوق أبواب المباني وشرفاتها، ثم يعود بهما إلى أرض الشارع وبلاط الرصيف.

-ارجع بنا، ثمة امرأة تلفت انتباهي.

-أية واحدة؟

-تلك التي تسير إلى جانب الرجل الطويل.

صدر صوت حاد، رجعت السيارة الأنيقة في الاتجاه المضاد، خفت سرعتها، سارت مواكبة لمشية الرجل والمرأة، امتدت رأس من نافذة السيارة، انفتح فم الرأس،

3-البحر:

تلوى البحر، خبط بأطرافه رمال الشاطئ، زفر ونظر في عيني المرفأ، حدق في عيني الرجل، التقت المقل، لم تكن عينا البحر زرقاوين كالعادة، فأنوار الشاطئ خافتة، وأضواء السفن صفراء، والأشعة المنعكسة لم تفلح في تحويل الدكنة المنتشرة على سطح الماء إلى لون الزرقة، أشعة الشمس وحدها تصبغ صفحته بألوان الخضرة والزرقة الصافية، الأسماك في القعر لا تنام، ممالكها لا تعرف الليل، الزمن كله عندها نهار، الغلاف السطحي فحسب يتلون بالعتمة والدكنة، فوقه تتكسر أصوات الناس المنتشرين على أطرافه، يغسلون عيونهم وجلودهم بمائه طلباً للطهارة، لكن قطراته المالحة لا تعدو القشرة، فتبقى القلوب مغلقة على ما فيها من عواطف متضارية ورغبات دنيا.

حجبت جدران المباني العالية عن عيني البحر السيارة ومن فيها، الرجل والمرأة يقتربان رويداً من صدر البحر، يمدان إليه نظراتهما، تتغلغل النظرات في

4-المدينة:

أغلقت المدينة على نفسها، واطفأت الأنوار باستثناء الأضواء الصفراء الخافتة الوانية، فوق المدينة، في الطرف الشرقي من السماء بدا القمر بدراً، رأى البدر بعينيه وقوف، السيارة، سمع كلام الرجلين، فحجب وجهه بغيمة رقيقة ونظر من خلف الحجاب إلى المدينة النائمة، رأى السيارة والرجلين في كومة المباني، وشاهد آلاف النيام يحلمون بالسعادة.

سمعت المدينة أصوات مكابح السيارة مراراً، وانقلب النائمون من جانب إلى آخر، ثم عادوا إلى الاستغراق في أحلامهم، أما الحراس فقد قالوا لبعضهم بعضاً:

-الأمن مستتب.

-الهدوء سيطر على كل الشوارع والأزقة.

-هلموا نجلس معاً، ونتناول بعض الشراب.

عندئذ كانت الديكة تصيح في أقفاصها عند أطراف المدينة.

5-المرأة:

ألقت أشعة عينيها فوق السيارة المسرعة، رنّت كلمات رجل السيارة في أذنيها كقرع آلاف الطبول، تشبثت أصابعها بعضلات يد رفيقها، دق قلبها دقاً عنيفاً، تعثر لسانها بألفاظ استنكار، خرجت الكلمات من بين شفتيها العنابيتين ضخمة متقطعة، اتجهت قدماها إلى الطرف الأقصى للرصيف، رنا البحر إليها من تحت الحاجز الإسمنتي، أحست بنظرات رطبة هادئة وادعة، فاستكان روعها قليلاً، التفتت إلى رجلها، انسكبت نظراتها لاهثة حارة في قلبه، سمعته يعقب على ما حدث بعبارات لم تفهمها، ازدادت التصاقاً به، همست تطالبه بالإسراع في العودة.

6-البدر:

كشف البدر عن وجهه الأبيض، تقدم خطوة في دربه، رأى الرجل والمرأة يتهامسان، والسيارة تنتقل من طريق إلى طريق بين المباني، ترجع إلى الشارع الرئيسي، تسير متهادية بطيئة، تواكب من جديد سير الرفيقين، يمتد رأس رجل السيارة، يرمي الرجل كلاماً باتجاه الرصيف، يشير بيده، يتوقف السائران مذهولين مرتبكين، ثم ينطلقان بخطى أسرع، وتندفع السيارة مبتعدة شأنها في المرة الأولى.

شاهد البدر شجيرات الشاطئ ترتجف أطرافها، ولاحظ قططاً وكلاباً تتوقف عن البحث عن أوعية القمامة لتلاحق العربة الأنيقة المسرعة بنظراتها، ورأى النائمين فوق أسرتهم ينقلبون من جانب إلى جانب ثم يعودون إلى جنات أحلامهم بينما السيارة تعيد فعلتها مثنى وثلاث.

7-الرجل:

اخترقت نظراتها فؤاده، اختلط العالم في عينيه بألوان الحمرة والخضرة والزرقة والعتمة، حدقتاها المنسكبتان في عينيه أعادتاه طفلاً خائفاً، حمل فوق رأسه سجل إهانات ضخماً ليتها تعرف كم هو مقهور ومهان، لو تعلم أن الإهانة الأولى قد رضعها مع أول دفقة لبن من ثدي أمه، عندما ولدته، كانت عائدة من الحقل، فوق رأسها حمل من أغمار القمح، وقت الظهيرة، في الأول من تموز، فهل تستطيع حبيبته أن تتصور حر الظهيرة في مطلع تموز بالنسبة لامرأة توشك على وضع مولودها الأول؟ على رأسها ذلك الحمل تسير به من الحقل إلى البيدر؟ يظن أن مجرد إدراكها للموقف أمر محال فكيف بها لو أخبرها بأن أمه قد شعرت بآلام المخاض وهي في منتصف الطريق؟ لن تصدق هاتان العينان الجميلتان أن تلك المرأة الفلاحة قد أنزلت ما على رأسها بهدوء، وانزلقت في جوف خندق ترابي حفرته مياه أمطار

8-همس الليل:

توالت الإهانات من أمه وأبيه، من أهله وأبناء قريته ومجتمعه، في الطريق والحقل والمدرسة والعمل، فماذا يقول لك اليوم؟ ماذا تطلبين منه أن يفعل؟ نظراتك اللائمة تثقب سويداء فؤاده، لكن يداه ما اعتادتا أن ترتفعا لرد الإهانة، إنه مدمن على القبول والموافقة والطاعة والمسالمة، لا قدرة له على الشجار أو العراك، أمضى عمره محنيّ الرأس أمام العاصفة، اختبأ من المواجهة، تهرب من لقاء من أهانه، فارفعي هذه النار المنسكبة من حدقتيك الحوراوين في قلبه، سيري إلى جانبه محنية الرأس مثله، إن العراك والشجار لا يجديان، فلتقبلي بما هو كائن، هلمي، أسرعي وانسي هذا الموقف المحرج المؤسف.

9-دفاع مقدم منه إليها:

عيناك مملكة لبست تاجها، تسنمت عرشها، ولا

إن يكن هذا الرجل قد أساء لك ولي، فقد سمعت إيذاء أشد من كلامه كل يوم، وطيلة حياتي، قال مالك الأرض مثل هذا الكلام لأمي الصبية، وعندما أخبرتها ذات ليلة بأنني سأحدث والدي بما أراه وأسمعه، زجرتني وقلبها يحترق:

-لا يا ولدي، لا تفعل، أتريد أن تفقد أباك إلى الأبد؟ هذا الرجل أهانني وأهانك، امتدت عيناه الذئبيتان إلى قدس جمالك، ألقى لسانه القذر كلمات نابية في مسمعك ومسمعي، وها هو يصر على الاستمرار في الإهانة، يكاد يختطفك من بين يدي ويطير بك إلى مكان ناء، أتصوره يلتهمك لحماً وعظماً ودماً في مغارة ضائعة عند قمة جبل، أنا متأكد من مقدرتي على صرعه ورميه أرضاً والجلوس فوق صدره المنتفخة، وقد فعلتها ذات مرة عندما كنت صبياً، يوم تحداني ابن مالك الأرض، وكنا تربين نلعب معاً، ركبت رأسي، أردت أن أكون إنساناً مثله، ولما أصبحت ركبتاي الصغيرتان فوق بطنه، ويداي تأخذان بخناقه وتشلان حركته، وجسمي النحيل الرقيق يجثم فوقه، قال لي: يا بن المرابعين، سأهجّرك من هذه القرية، سأطردك من المنطقة بأسرها. وفي اليوم نفسه

10-حدث بعد منتصف الليل:

توقفت سيارة حديثة أنيقة بجانب الرصيف المستلقي على شاطئ البحر، هدأت حركتها، انطفأت أنوارها، انفتح بابها، نزل منها رجل، سار فوق الرصيف متمهلاً، يداه في جيبي بنطاله، عيناه تلاحقان حركات وسكنات الرجل والمرأة المتشابكي الذراعين، تقدم منهما، توقف قليلاً، تابع سيره، تجاوزهما، سبقهما مسافة، استدار، واجههما، ابتسم لهما، حياهما برقة بالغة، مد يده يريد مصافحة المرأة ويقول: لنكن أصدقاء... و... و... مادت الأرض من تحت قدمي رفيق المرأة، اختلط في ذهنه الماضي والحاضر والمستقبل، استوى في ناظريه الليل والنهار أحس بكومة الإهانات التي عانى منها أو سمع بها تندلق دفعة واحدة فوق رأسه، رأى أمامه أمه وأباه، مالك الأرض، ابن المالك، وامتلأ الرصيف بوجوه كل من عرفهم خلال عمره.

ما يزال الرجل يمدّ كفه مصافحاً، ارتفعت يد رفيق المرأة نحو غريمه، توترت عضلات اليد، ظلت مرفوعة

■■■

الفرح:

1-التأجيل

يوم عرسنا، فتاتي مستعدة، تلبس ثوب الفرح، أما أنا فقد حضرت متأخراً لذلك طلبت هي تأجيل الزفاف.

ظـــللت هادئاً أحدق إلى عينيها الحوراوين. أحمـــرّ وجهها، تعلقت نظراتها في شـــفتي، تجولـــت النظـــرات المندهشة بين معالم وجهي، رأت جميع الأشجار هادئـــة، ليس ثمة نسمة هواء، تحـــرك الأغـــصان، أو تتلاعـــب بالأوراق.

سألتها:

-هل سنظل على هذه الحال؟

-صبراً.

-ألن يكون هناك عقد رسمي بيننا؟.

-صبراً.

-ألم يحن يوم فرحنا بعد؟.

-صبراً. إن كل شيء سوف يتم في حينه على أكمل وجه.

2-الرسالة

الشمس في قبة السماء تشتعل، أشعتها تتكوم فوق المباني، تكسو سطح البحر بلون الفضة، تتكدس على الأرصفة، في محاور الطرق، وسط الساحات.

خرجت فتاتي من دارها القديمة، مرت عبر بستان عظيم الأشجار وارف الظلال، سارت عالية الجبين في ممر واسع بين الأغصان الخضراء، والأزهار المختلفة، لاحقها الشبان والرجال، القوا في دربها كلمات غزل، ظلت سائرة في طريقها مرفوعة الرأس، تنظر إلى الأمام، لا يلامس مسامعها شيء مما يقال، لا تبصر ممن حولها أحداً.

اجتازت باب البستان إلى شارع عريض، احتضنتها الأشعة الذهبية، وقفت، تلفتت حولها باحثة عني، جريت نحوها صافحتُ عينيها، غمرتني لحظة فرح عارم، سرنا سوية، حدثتها طويلاً، ظلت ساكتة، أسألها فلا تجيب، أبثها لواعج قلبي، أصف لها ما أعانيه بعيداً عنها، يبدو عليها

مدت نحوي كفها مودعة، نـــاولتني ورقـــة مطويـــة مكتوبة، نبضت الكلمات داخل الورقة بالحياة، نبتت مـــن خلالها شجيرة عطر. أدركت أن السطور تحوي أجوبـــة لجميع ما في صدري من أسئلة.

3-الإشارة:

سرت في شوارع المدينة وحيداً، أمشي من طريـــق إلى طريق، أعانق نظـــرات المـــارة، أتـــشبث بخـــضرة الأشجار، أتعلق بضياء نور الشمس.

جلست في ركن منزو من أركـــان أحـــد الميـــادين. سيارات كثيرة من مختلف الأحجام والأشـــكال والألـــوان تعبر من يمين إلى يسار ومن يسار إلى يمين، لكنها بدت جميعها لعيني صغيرة قميئة، قزمة، قزمة. عندما غمرت الأشعة البرتقالية الأشياء، وغطت سقف الميدان، نهضت لأضرب في الأزقة. بحثت، سألت الناس عن فتاتي. لـــم يقدر واحد منهم أن يرشدني إلى مكانها. فجأة ظهر فـــي ركن قصي من الزقاق رجل أعرفـــه، ركـــضت نحـــوه، رجوته أن يدلني، أن يقودني إليها، فهي بانتظاري، لقـــد تعبت من التجوال، وأخشى أن يتطرق ملل الانتظار إلـــى فؤادها، أو تفقد الأمل باللقاء فتخلع ثوب الزفاف الأبـــيض الذي ترتديه استعداداً ليوم فرحنا الأكبر. يوم نلتقـــي بـــلا

أدار لي الرجل ظهره دون أن يبدو عليه أنه يعرفني أو يسمع قولي. قادتني خطاي إلى زقاق آخر وآخر، وجدت طفلاً وطفلة يسيران جنباً إلى جنب يحمل كل منهما طاقة زهر جميلة، تقدمت إليهما، سألتهما عن منزل فتاتي، فأشارا ببساطة وثقة عفوية إلى أحد المنازل الأنيقة وقالا:

-إنها هناك تنتظرك دائماً مرتدية ثوب الزفاف الأبيض.

4-اللقاء:

من وراء زجاج النافذة. رأيت فتاتي قادمة، إنها في أول الزقاق، تسير بخطى وئيدة واثقة، تتجه نحوي وفي صدرها مثل ما في صدري من شوق وحب، اتسع الزقاق، أصبح شارعاً عريضاً مزين الجانبين بأشجار باسقة. اقتربت، دخلت المبنى، قرعت الباب، وقفت أمامي، مدت إليّ يدها الصغيرة السمراء مصافحة، تلون العالم من حولي بالأخضر الفاقع، فتح المنزل ذراعيه وضمها إليه، رقصت قطع الأثاث، ابتسمت الصور المعلقة إلى الجدران، دخلت العصافير من النوافذ وملأت غرف المنزل زقزقة وتغريداً، استلقى الصباح فوق جميع مقاعد البيت، وبنى الفرح أعشاشه في زواياه، وانفلش

■■■

الفهرس

زمن الشام 7
عروة 18
جراد 23
في بوابة دمشق 27
احتفال 32
سالم 37
بيتا 42
فتيان الجنوب 47
طريف يرسم 52
في بيت ساحور 56
بين كتابين 61
نجمة.. نجمتان 67
رقصة البنادق 71
حجارة ... وقنابل 75
سلوان 80
((أحمد)) 85
القاتل والمقتول 92
-بلال يستيقظ متأخّراً- 103
الفرح: 113

■■

صدر للكاتب

1-حدث في تشرين.....
قصص /عام 1980/ دمشق -بالتعاون مع اتحاد الكتاب
2-مغامرات رجل مشتاق....
قصص /عام 1982/ دمشق -وزارة الثقافة

■■

محسن غانم

- *ولد عام 1938 في بلدة الفاخورة- محافظة اللاذقية*
- *تلقّى دراسته الإعدادية والثانوية في ثانوية جول جمال في اللاذقية من عام 1950 حتى 1975.*
- *نال درجة الإجازة في الحقوق من جامعة دمشق عام 1992*
- *حصل على إجازة في اللغة العربية وآدابها من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق عام 1970.*
- *كتب القصة القصيرة والمقالة النقدية والزوايا والتحقيقات الصحفية في صحف ومجلات القطر العربي السوري وخارجه، منذ أواخر ستينات القرن العشرين.*
- *نشر مجموعته القصصية الأولى "حدث في تشرين" عام 1980 بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب. في دمشق.*
- *صدرت له مجموعة قصصية ثانية "مغامرات رجل مشتاق" عن وزارة الثقافة في دمشق عام 1982.*
- *عضو اتحاد الكتاب العرب- فرع اللاذقية- منذ عام 1982.*

❑❑

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

زمن الشام: قصص/ محسن غانم– [دمشق]: اتحاد الكتاب العرب، 2000 – 112ص؛ 20سم.

1– 813.01 غ ا ن ز 2– العنوان
3– غانم

ع– 2001/2/159 مكتبة الأسد

❑❑

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

SyrianStory